موقف المستشرق "رودي باريت" من القران الكريم دراسة فكرية معاصرة

إعداد
أ.م.د. سلام مجيد فاخر
كلية العلوم الإسلامية/الجامعة العراقية
قسم العقيدة

خلاصة البحث

الحَمدُ لله الذي أنزل القرآن العظيم عِبرة لمن تَدَبر، وأصلي وأسلم على من أَنذَرَ وبَشَرَ سَيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغُر الميامين ، أما بعد :

فإن القرآن الكريم كتاب هداية وإصلاح وإرشاد وبيان، فقد أنزله اللهُ تعالى كتاباً خَتم به الكتب ، على خاتم الأنبياءِ والرسل ، فكان من فضلهِ سبحانهُ وتعالى أن أكرمني ومَنَّ عليَّ بالبحث في الدراسات الفكرية المعاصرة ، وَذلك في دراسةٍ حديثةٍ عن موقف المُستشرق الألماني رودي باريت (Rudi baret) في كتاباته – من القرآن الكريم – .

مشكلة البحث : يهدف البحث للاجابة عن مجموعة من الاسئلة ومن ابرزها :

١ ـ المنطلقات الفكرية التي انطلق منها باريت في تعامله مع القرآن الكريم .

٢ ـ ما أهمية الموضوع الذي يقدمه باريت في كتاباته بالنسبة للعالم الغربي من جهة والعالم الإسلامي من جهة أخرى .

٤ ـ ما المناهج التي اعتمدها باريت في تناوله لشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعلاقتها بالقرآن الكريم .

٥ ـ الأنماط الأسلوبية التي اعتمد عليها باريت في تقريره للنتائج والأطروحات التي تبناها في كتاباته .

٦ ـ النتائج التي توصل لها باريت في كتاباته، وما أبعاد تلك النتائج وخطورتها على العقيدة الإسلامية .

Abstract

Orientalist attitude "Rudy Bart" of the Koran Intellectual study contemporary

Praise be to God, who sent down the Qur'an a great lesson to those who manage, and pray, and gave up on humans is forearmed and the Prophet Muhammad, peace be upon on The God of the good and virtuous, and his companions granite blessed, either: The Koran a book of guidance, repair and guidance and statement, God book seal its books was revealed, the seal of the prophets and apostles, was the bounty Almighty to Okrmeni It is on the research in contemporary intellectual Studies, in a recent study about the position of the German Orientalist Rudy Barrett (Rudi baret) in his writings - from the Koran -.

Problem Search: Search to answer a series of questions aimed, notably:
1 intellectual premises from which the Barrett in his dealings with the Koran.
2 What importance of the subject offered by Barrett in his writings for the Western world on the one hand and the Islamic world on the other.
4 What curriculum adopted by Barrett in his take on the Prophet Muhammad, peace be upon him and their relationship to the Holy Quran that.
5 stylistic patterns that adopted by Barrett in his report of the results and theses adopted in his writings.
6 findings have Barrett in his writings, and the dimensions of those results and seriousness of the Islamic faith.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحَمدُ لله الذي أنزل القرآن العظيم عِبرة لمن تَدَبر، وأصلي وأسلم على من أَنذَرَ وبَشَرَ سَيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغُر الميامين ، أما بعد :

فإن القرآن الكريم كتاب هداية وإصلاح وإرشاد وبيان، فقد أنزله اللهُ تعالى كتاباً خَتم به الكتب ، على خاتم الأنبياءِ والرسل ، فكان من فضلهِ سبحانهُ وتعالى أن أكرمني ومَنَّ عليَّ بالبحث في الدراسات الفكرية المعاصرة ، وَذلك في دراسةٍ حديثةٍ عن موقف المُستشرق الألماني رودي باريت (Rudi baret) في كتاباته – من القرآن الكريم – .

ويواجه القرآن الكريم حالياً مجموعة من التحديات على المستوى الداخلي والخارجي ، فطالما تعرض للهجمات من أعداء الإسلام باعتباره أساس الدين ، وكان من أشد تلك الهجمات مكراً ما طرحه رودي باريت في كتاباته والتي هاجم فيه الوحي القرآني ، وعليه انتدب الباحث نفسهُ الدفاع عن القرآن الكريم والذود عن سيرة سيد المرسلين محمد (ﷺ) . فضلاً عن رغبتي في مواكبة الموضوعات الفكرية المعاصرة التي تتعلق بالقرآن الكريم والسيرة النبوية ، والتي كان لكتابات باريت موقع الصدارة منها .

ولا شك أن باريت طرح في كتاباته من القضايا العظام ما لا يُبصرُ مداها إلا كبار العلماء من الأئمة الاعلام ، فلا يخفى عليهم أن تفكيك العلاقة التاريخية بين القرآن الكريم وبين نبينا محمد (ﷺ) فيها من المصاعب الكثيرة والعمل الواسع الذي يقتضي بمراجعة مراحل السيرة النبوية مروراً بنزول القرآن الكريم وتدوينه وانتهاءاً بكتب علم الناسخ والمنسوخ وأسباب والنزول وما شاكلها ، لكنَّ هذه الصعوبات تضاءلت ويُسرت بفضل من اللهِ تعالى وعونه ، حين راجعت كتب العلماء وتدبرت كلماتهم وهكذا مضيت .

ثم مهارة رودي باريت في توظيف مفاصل السيرة النبوية والقصص القرآني للطعن بالوحي القراني ، فاستلزم لتفكيك وتحليل آرائه على الباحث مواصلة الليل والنهار في البحث والتنقيب في بطون الكتب ؛ لاستخراج ما بمكنونها من الحق المستمد من الوحي الإلهي .

ومما يرفع من قيمة موضوع الدراسة أن رودي باريت(Rudi Paret) يُعد من أعمدةِ المُستشرقين ، وَمَا تَزالُ أفكارهُ وَأطروحاتهُ مُتبناة ممن جَاء بَعدهُ من الغربيين المُشتغلين بالدراساتِ الفكرية

المعاصرة ، وأخطر ما في كتاباته أنه سعى على تشكيلِ علاقة بين القرآن الكريم وَبين الرسول الكريم (ﷺ) مَفادُهَا :

إنَّ القرآن الكريم خِبرة بشرية تراكمية صَادرة عن النبي محمد(ﷺ) ، وَلذلك ستكون هذهِ العلاقة هي محور البحث الأساس ، يُسلط فيها الضوء على آرائه التي تَدور حَول القرآن الكريم ومصدره ، والقارئ لكتاباته باريت يجد قَضية مَصدر القرآن الكريم وَعلاقتها بالنبي محمد (ﷺ) تُلقي بِظلها في اغلب كتاباته ، ساعياً خلالها على تَوظيف كلِّ مُفردةٍ لسلبِ القُدسية الربانية عن الوحي الإلهي مثمثلا بالقرآن الكريم ، مُنطلقاً بذلكَ على تَتبع مَراحل السيرة النبوية وأثرها في كشف تاريخية تكوين النص القرآني كما يزعم ، مستنداً على مقدمة خاطئة تعد القرآن الكريم وثيقة تاريخية تُجسد تاريخ النبي محمد(ﷺ) ؛ علما أنَّ القرآن الكريم يَحتلُ المنزلة الأولى عند المُسلمين ، و في الوقت ذاته يعد وَثيقة تاريخية مُعتمدة عند عامة المستشرقين في دراستهم لتاريخِ النبي محمد(ﷺ) وعصره ، وبهذين البعدين تظهر براعة باريت وخطورة أطروحاته التي تبناها في كتاباته ، فهو يُرجِع مَا تَضمنهُ القرآن الكريم من أقوالٍ وَخطابات على أنَّها أقوالٌ للنبي محمد (ﷺ) ذَاته ، نَطق بها لسانهُ تَعبيراً بما في وجدانه ، وَمن هذه الرؤية يَنطلق باريت لسلبِ الوحي الإلهي عن القرآن الكريم ، مُستعملاً بذلك مَناهج المُستشرقين ، وَفي مقدمتها مَنهج النقد التاريخي الذي لا يشترط الإسناد وصحته ، ويرى من خلالهِ إنَّ القرآن وَثيقة تاريخية تُوضح الرؤية حول حياة النبي محمد (ﷺ) وَحقبتهِ ، طارحاً في كتاباته عن القرآن الكريم على شِكل فصولٍ وَمباحث تُمثل تاريخ النبي محمد(ﷺ) وحياته ، منذُ نشأتهِ في مكة وَما تضمنتها من نظم و مُعتقداتٍ وأديان إلى اكتمال دينه ورسالته ، فالقرآن لم يُمثل لباريت إلا خِبرة بشرية نتجت عن محمدٍ النبي (ﷺ).

مشكلة البحث : يهدف البحث للاجابة عن مجموعة من الاسئلة ومن ابرزها :

١ ـ المنطلقات الفكرية التي انطلق منها باريت في تعامله مع القرآن الكريم .

٢ ـ ما أهمية الموضوع الذي يقدمه باريت في كتاباته بالنسبة للعالم الغربي من جهة والعالم الإسلامي من جهة أخرى .

٤ ـ ما المناهج التي اعتمدها باريت في تناوله لشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعلاقتها بالقرآن الكريم .

٥ ـ الأنماط الأسلوبية التي اعتمد عليها باريت في تقريره للنتائج والأطروحات التي تبناها في كتاباته .

٦ ـ النتائج التي توصل لها باريت في كتاباته، وما أبعاد تلك النتائج وخطورتها على العقيدة الإسلامية .

منهجية الدراسة :

تَرَكزَت الدراسة على توضيح العلاقة التي يؤسس لها باريت بين القرآن الكريم وبين النبي محمد(ﷺ)، من خلال تفكيك آرائه ، وَعرضِ الموضوع على شكلِ مَباحثٍ قرآنية ، اتبع فيها الباحث المنهج التحليلي الذي يقضي بتفتيت الظاهرة الفكرية المدروسة الى عناصرها ومكوناتها وبيان أصولها ، وذلك بانتقاء نماذج مُتنوعة من مقولات باريت وأطروحاته حول القرآن الكريم ، ثمَّ الرد عليها رَداً علمياً موضوعياً ـــ من ناحية المصادر التي اعتمد عليها باريت والنتائج التي توصل إليها ـــ مُستنداً إلى شواهدٍ من الأدلة النَّقلية والعقلية عبر منهجٍ علمي وموضوعي ومناقشة الأبعاد الخطيرة للنتائج التي توصل لها باريت وتتبع تطورها في ضوء الرؤية الفكرية الإسلامية المعاصرة .

ثُمَّ كانت الخاتمة والتي تضمنت أبرز النتائج .فمَا كان من صواب في هذه الدراسة فهو : من الله تعالى بفضلهِ وَمَنِّه وَكرمه ، وَما كان من زللٍ وخطأ فمني ومن الشيطان ، وأسألهُ سبحانه المغفرة والصفح إنَّه ولي ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحَمدُ لله رب العالمين .

تمهيد

التعريف بالمستشرق (رودي باريت)

لابد أنّ نُعَّرف بحياةِ المؤلف (رودي باريت) ، وَمَا البيئة التي نَشأ فيها ، وَكذلك أنّ نذكر كيف تلقى باريت تَعليمه وَمن هم ابرز أساتذتهُ ، فكل إنسان يتأثر بالبيئةِ وَالمحيط الذي عاش فيهِ .

اولا : حياته .

رودي باريت (Rudi Paret) ، وِلد في ٣ أبريل (نيسان) سَنة (١٩٠١م) في (Witten Dorf) بنواحي(Freudenstadt) في الغابة السوداء بجنوبي ألمانيا ؛ من أُسرة يَكثرُ فيها القَساوسة المَسيحيون [١].

دخل رودي باريت جامعة توبنجن (Tubingen) ، وَدَرس اللغات السامية والعربية منها خاصة ، بالإضافة إلى التركية والفارسية ، وتتلمذ في الدراسات العربية على إنو ليتمان (Enno Littman) فَحصل منها على الدكتوراه الأولى في سنة (١٩٢٤م) وَكان مَوضوع أطروحته القصة الشعبية (سيف بن ذي يزن) ، وَبعدها أمضى سنتين في القاهرة (١٩٢٥ ــ ١٩٢٦ م) ، ثم حَصل باريت على دكتوراه التأهيل

(١) ينظر موسوعة المستشرقين ، عبد الرحمن بدوي : ٦٢

للتدريس في الجامعة في سنة (١٩٢٦ م) وعلى إثر ذلك عُين مدرساً مساعداً في قسم الدراسات الشرقية في جامعة توبنجن ، وفي عام (١٩٤١م) انخرط في الخدمة العسكرية ، وَعمل في جيش رومل(Rommel)[١] في ليبيا ، كمترجم إذ كان يستعمل معرفته باللغة العربية للتفاهم مع الليبيين ، وَخاصة مَع البدو وَالذين كان يُطلب منهم تأمين بعض المواد الغذائية للجيش الألماني ، ولَما فشلت حملة روميل ، وانهزم الجيش الألماني، وَقع باريت في الأسر سنة (١٩٤٢م) وَظل في الأسر حتى سنة (١٩٤٦م) ، وَبعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، عَاد باريت للتدريس سنة (١٩٥١م) وَعُين أستاذاً للساميات والإسلاميات في جامعة توبنجن ، حتى أُحيل إلى التقاعد في (٣٠ / ٩ / ١٩٦٨م) [٢].

وَيذكر رودي باريت زيارته المؤثرة في نفسهِ لتيودور نولدكه (Theodor Noldeke) فيقول في : "صَيف عام ١٩٣٠م أُتيحت لي فُرصة القيام من جامعة هايدلبرج ...لزيارة تيودور نولدكه في مدينة كارلسروهه القريبة ، لزيارةِ أستاذ الاستشراق الجليل الذي حَظي بتقدير عالمي في مَادته ، كانت هذه الزيارة خبرة جِدَّ مُؤثرة في نفسِ الزائر الذي لم يكن قد بَلغ الثلاثين من عمرهِ بعد " [٣].

وَيذكر مُراد هوفمان[٤] مكانة باريت وأنَّه خلف وَوريث للاتجاه العلمي الذي سَار عليه نولدكة ، فيقول : " وَكذلك أفنى الأستاذ (Rudi Paret) من تينيجن حياته في دِراسة القرآن ، وَتوصل بدراستهِ إلى إثبات أنَّه خلف ووريث صالح ، في القرن العشرين ، لهذا الاتجاه العلمي المُتأصل" [٥].

---

(١) ــ روميل : هو إفين روميل Erwin Rommel (١٨٩١ــ ١٩٤٤م) كان يلقب بثعلب الصحراء ، حيث كان يُرى انه احد امهر القادة في حرب الصحراء ، حصل على رتبة مشير أثناء الحرب العالمية الثانية في شمال أفريقيا ، توفي في ١٤ أكتوبر عام ١٩٤٤م بعد أن اجبره أدلوف هتلر على الانتحار . ينظر المشترك الإنساني ، راغب السرجاني : ٧٢٩

(٢) ـ ينظر مجلة الاستشراق ، العدد الثالث ١٩٨٩م ، مقال بعنوان مستعربان ألمانيان بارزان هلموت ريتر ورودي باريت ، د. ميشال جحا : ١١٦ ، وينظر موسوعة الاستشراق ، عبد الرحمن بدوي :٦٢

(٣) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، رودي باريت : ٧

(٤) ــ مراد هوفمان : هو مراد ويلفريد هوفمان (بالألمانية : Murad Wilfried Hofmann) (١٩٣١م ــ ٠٠) : مستشرق ألماني ، درس القانون في ميونخ ، عمل في الخمسينيات في سفارة ألمانيا الاتحادية في الجزائر ، وعمل كمدير لقسم المعلومات في حلف الناتو في بروكسل، أعلن إسلامه عام (١٩٨٠م) ، من كتبه : الإسلام كبديل . ينظر المشترك الإنساني ، راغب السرجاني :٥٨٢

(٥) الطريق إلى مكة ، مراد هوفمان : ١٢١

وَيُعد رودي باريت أحد أركان الدراسات الإسلامية المعاصرة ، ليس في ألمانيا فحسب ، بـل وَفي العـالم أيضا ، وَيقوم باريت المُشرف على القسم الإسلامي في دار الكتب الوطنية بمدينة توبنجن التي تضم حوالي (مليون ونصف المليون) من الكتب في مُختلف اللغات العالمية ، بإعداد ترجمة للقرآن الكريم بعنـوان (Der Korran)[١] ، وَكان لرودي باريت نشاطات واسعة من إلقاء المحاضرات العامة والأحاديث في الإذاعـة ، وكانت علاقات المَودة بينه وبين بعض المسلمين في ألمانيا وخارجها ، وَخصوصاً في إيران ، حتى إنَّ الحـوزة العلمية الشيعية في قُم طبعت ترجمتهُ للقرآن الكريم طبعة جديدة بالأوفست ، وَقامت السفارات الإيرانية في أوروبا بإهداء نُسخ منها إلى كبار الزائرين الأوربيين؟ [٢] .

وَقد كانت لرودي باريت الكثير من الآراء المُتسامحة تجاه الإسلام كما في قوله : " كان العرب يعيشون منذُ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة ، التي سميت نسبة إليهم يعيشون فيها فسادًا ــ على حد حكـم سكان البلاد المتحضرة المتاخمة ــ حتى أتى محمد وَدعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بـارئ، وجمعهـم في كيان واحد متجانس" [٣] .

توفى رودي باريت (Rudi Paret) في (٣١) يناير (كانون الثاني) سـنة (١٩٨٣م) إثـر مـرض قصير المدة[٤].

ثانيا: إنتاجه العلمي :

تَرك رودي باريت (Rudi Paret) الكثير من الآثار العلمية ، لكن العمل الأساسي الذي ارتبط به اسم رودي باريت كمُستشرق هو ترجمته للقرآن الكريم إلى اللغة الألمانية في مجلدٍ ، والتعليق على هذه الترجمة في مجلدٍ ثان ، وَقد حَرصَ باريت في ترجمته على أن يكون عمله العلمي ، قريباً ما أمكـن مـن الدقـة وإصـابة الهدف في نقلِ المعاني الحقيقية لكلماتِ القرآن من العربية إلى الألمانية [٥].

---

(١) ينظر الإسلام والمسلمون في ألمانيا بين الأمس واليوم ، طه الولي : ٦٩

(٢) ــ ينظر موسوعة المستشرقين ، عبد الرحمن بدوي :٦٢ ــ ٦٣

(٣) ــ الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، رودي باريت :٢٠

(٤) ــ ينظر موسوعة المستشرقين ، عبد الرحمن بدوي :٦٢

(٥) ينظر الإسلام والمسلمون في ألمانيا ، طه الولي : ٧٠

وَيذكر عبد الرحمن بدوي : إنَّ في هذه الترجمة لم يشأ باريت أن يدخل في مُغامرات المُستشرق ريتشارد بيل [١] (Richard ball) الذي قطع سور القرآن الكريم تقطيعات اعتباطية لم يُبين دواعيها وأسبابها حتى فرق القرآن الكريم إرباً إرباً، وَلا في مُحاولات المُستشرق رجي بلاشير[٢] (Blachere) الذي وضع ترتيباً تاريخياً للسور حسب نزولها وفقاً لما تخيل، بل تَرجم باريت القرآن الكريم بحسب الترتيب العثماني المُتعارف عليه بين المسلمين منذُ سنة(٣٠ه) تقريباً وَحتى اليوم ... وَالتزم باريت في ترجمتهِ الدقة ، وإن جَاءت أحياناً على حِساب الأناقة في العبارة التي تَشتهر بها اللغة الألمانية، وَابتعد باريت في فَهمهِ للنص عن شطحات المُفسرين ذوي النزعات الخاصة ، وإنَّما تعلق بالنص كما هو في أبسط فهم له، وحين كانت الترجمة الحرفية تَبدو غير واضحة ، كان يضع بين قوسين معقوفتين كلمات إضافية من عنده ابتغاء الإيضاح ...وَفي المُجلد الثاني وَضع باريت تعليقات على المواضع المشكلة في فهم بعض الآيات في كلِّ سورة تلو سورة ، وَذكر خلاصة الأبحاث التي جَرت حول المُشكلة خصوصاً أبحاث المُستشرقين ، وَبذلك زودنا بإشارات إلى الدراسات العديدة التي تناولت هذه المشكلة أو تلك مِمّا يُثيره النص القرآني ، وَبهذا صَار هذا المُجلد الثاني مِن ترجمة باريت بمثابةِ أداة ببليوجرافية[٣] نافعة جداً [٤].

(١) ــ ريتشارد بيل (١٨٧٦ ــ ١٩٥٢م) : مستشرق انكليزي ، عمل أستاذاً للغة العربية في جامعة ادنبرا ، من أبرز مؤلفاته : ترجمته للقرآن الكريم ، والحديث عند المسلمين ، من هم الحنفاء ، و أهل الأعراف ، و الطلاق في الإسلام وغيرها من الكتب . ينظر المستشرقون ، نجيب العقيقي : ٢ / ٩٣ ــ ٩٤

(٢) ــ ريجي بلاشير (١٩٠٠ ــ ١٩٧٣م) : مستشرق فرنسي ولد في باريس ، سافر مع والده علم (١٩١٥م) إلى المغرب العربي ، وفي عام (١٩٢٩م) عين مدرساً في معهد الدراسات العليا المغربية ، ثم عُين في السوربون في باريس إلى تقاعده عام (١٩٧٠م) ، من أبرز كتبه : ترجمته للقرآن الكريم إلى الفرنسية وقد رتب السور فيها وفقاً لما ظنه أنه على ترتيب النزول ، ثم أعاد طباعتها على ترتيب المصحف ، وله كتاب عن المتنبي . ينظر موسوعة المستشرقين ، عبد الرحمن بدوي : ١٢٧

(٣) ـ ببليوجرافيا: بالانكليزية (Bibliography) : كلمة غير العربية وهي معربة في العصر ـ الحديث، واصلها من اليونانية وهي مركبة من كلمتين هما Biblion :كتيب ، وكلمة Graphia وهي اسم الفعل المأخوذ من Graphein بمعني ينسخ أو يكتب، إذن الببليوجرافيا كلمة تتكون من مقطعين ببليو معناها كتاب وجرافيا تعني وصف ولهذا فإن أبسط تعريف للكلمة هو وصف الكتب.، : ينظر ببليوجرافيا من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة .

(٤) ينظر موسوعة المستشرقين ، عبد الرحمن بدوي : ٦٢

وَصَدرت ترجمة رودي باريت بين عام (١٩٦٣ ــ ١٩٦٦م) وأعيدت طباعتها لعشراتِ السنين ، وَتعدُ من أهم الترجمات الألمانية ؛ لمَا تقدمه من مُرادفات وَبدائل لغوية للكلمة الواحدة ، وَكذلك للمعرفةِ الواسعة لصاحبها بالمصادر الإسلامية ، وبسبب الحواشي والشروح فقد النص القرآني جماله وقوته البلاغية في تلك الترجمة الجافة الخالية من كل روح ، إلى جانب الغموض والاضطراب الذي يصرف القارئ العامي عن القراءة واستخلاص المعاني[١] ، وقصد باريت من ترجمته المساعدة على فهم القرآن فهما تاريخياً[٢].

ولا تخلو ترجمة رودي باريت من الأخطاء ، ومن تلك الأخطاء ترجمته لبدايةِ سورة الإسراء ، فيُترجم قوله تعالى : { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ـ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٣]

Gepriesen sei der , der mit seinem Dinner (d .h . Mohammed) bei Nacht von der heiligen Kultsaette (in Mekka) nach det fernen Kultsaette (in Jerusalem) deren Umgebung Wir gesegnet haben reiste .

وَمعناها : سُبحان الذي ارتحل مع عبدهِ (محمد) في الليل من مكان العبادة (في مكة) إلى مكان العبادة البعيدة (في القدس) الذي باركنا حوله .

والترجمة الألمانية الصحيحة لمعنى الآية القرآنية هي :

Gepriesen sei der , der seinen Diener des Nacht von der al – Her am Moschee zur Al – Aqse Moschee fuehrte , deren umgebung Wir gesegnet haben . [4]

وتعني بالعربية : سُبحان الذي ارتحل بعبدهِ (محمد) في الليل من مكان العبادة (في مكة) إلى مكان العبادة البعيدة (في القدس) الذي باركنا حوله .

وكان لباريت العديد من الكتب وَالأبحاث والمقالات التي تتناول الإسلام والقرآن الكريم والأدب العربي والتاريخ الإسلامي ، وقد حظيت باهتمام العلماء والقرّاء ، وركز باريت في أولِ رحلته العلمية بالأدب

(١) ــ ينظر ماذا يريد الغرب من القرآن ، د . عبد الراضي محمد عبد المحسن ، إصدار مجلة البيان ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م : ٣٥

(٢) ــ ينظر الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، رودي باريت : ٧٩

(٣) ــ سورة الإسراء ، الآية : ١

(٤) ينظر ماذا يريد الغرب من القرآن ، د . عبد الراضي محمد عبد المحسن : ٦٣ ــ ٦٤

الشعبي عند العرب ، وَكان هذا النوع من الأدب قد أخذ يُلاقي اهتمام بعض المُستشرقين الألمان ، وَخاصة بعد نقل كتاب ألف ليلة وليلة الشهير ، الذي نَقله إلى الألمانية أستاذه إنو ليتمان (Enno Littman) في ستةِ مجلداتٍ بأسلوبٍ رائع ، وقادهُ ذلك إلى تأريخ الإسلام كمَا يتضح ذلك بالأدب العربي الشعبي ، ثُمَّ انتقل رودي باريت بَعدها إلى العلوم الإسلامية مركزاً فيها على الأبحاث القرآنية(١).

ومن الكتب والأبحاث التي كتبها رودي باريت :

١ ــ أطروحته للدكتوراه القصة الشعبية سيف بن ذي يزن عام (١٩٢٤م) ، وَهي بالألمانية : (Sirat Saif ibn Dhi Jazan.)

٢ــــ كتاب تاريخ الإسلام على ضوء الأدب الشعبي العربي (١٩٢٧م) وَهو بالألمانية: (Die Geschichte des Islamsim Spiegel der arabischen Volksliteratur)

٣ ــ وَ رواية عمر النعمان الفرسانية وعلاقتها بألف ليلة وليلة (١٩٢٧م) ، وَهي بالألمانية :(Ritter Roman Umar an – un man und seiner Stellung)

٤ ــ وَكتاب أدب المغازي الخرافي ، أشعار عن حروب الإسلام في عصر الرسول محمد (١٩٣٠م) (بالألمانية Dielegerdare Maghazi Literatur arabische Dichtungen uber Muslimische Kriegszuge Zu Mohammeds Zeit)

٥ ــــ وَكتاب قضية المرأة في العالم العربي الإسلامي (١٩٣٤م) والتي بالألمانية : (Zur frauenfrage in der arabisch – Islamischen Welt)

٦ ــــ وَرسالة بعنوان (الإسلام والتراث الثقافي اليوناني) وَقد ظهرت سنة (١٩٥٠م) وفيها فحص أحوال البحث في التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية

٧ ــــ وَكتاب محمد والقرآن ــ تاريخ النبي العربي ودعوته ، طبع أول مرة سنة (١٩٥٧م) ، وَهو بالألمانية : Geshichte (Mohammed und der Koran - and Verkundigung des arabischen Propheten

٨ ــــ وَكتاب الرمزية في الإسلام (١٩٥٨م) ، بالألمانية (Symbolik des Islam)

٩ ــــ جَدد باريت كتاب وَضعه هاردر (hoarder) لتدرس قواعد اللغة العربية في الجامعات الألمانية ، عام (١٩٦٥م) ، وَهو بالألمانية :(Harders Kleine arabisch Sprachlihre)

١٠ــــ وَكتاب ترجمة القرآن إلى الألمانية بعنوان (der Koran) عام (١٩٦٦م)

(١) ينظر مجلة الاستشراق ، العدد الثالث 1989م ، ميشال جحا : ١١٧

١١ــــ وَكتاب الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية المُستشرقون الألمان منذ تودير نولدكه ، (١٩٦٧م) ، وَهــو بالألمانيــة : Arabistik und Islam – Kunde an Deutschen (Universitaten)

١٢ــــ وَكتاب القرآن تعليق وفهرسة ، طُبع عام (١٩٧١م) ، وَهو بالألمانية : (der Koran kommentar und konkordanz)

١٣ ــــ وَكتاب القرآن مُترجم ، تعليقات و شروحات، وَهو بالألمانية : (der Koran ubersetzt kommentiert und eingeleitet)

١٥ ــــــ وَدراســته عــن قصــص الحــب العــربي ، وَهــي بالألمانيــة : (fruharabischen liebesgeschichten)

١٦ــــ وَرودي باريت هو أحد مُحرري دائرة المعارف الإسلامية [١].

المبحث الأول

آراؤه في مصدر القرآن الكريم

يُعدُ الوحي الوسيلة التي يَتلقى بوساطتها الأنبياء (عليهم السلام) الأخبار وَالأوامر الإلهية، فَهو يُمثل شرطاً من شروط النبوة وَمُستلزماتها، وَبدون الوحي لا يُمكن للبشرية أن تتلقى المَعارف الإلهية ، فهو يعد من سمات الأنبياء (عليهم السلام)، وخاصية من خصائص النبوة .عليه سأتناول في هذا المبحث أبرز الدعاوى التي ذكرها باريت (Paret) فيما يتعلق بالوحي القرآني ، مسلطاً الضوء عليها مع مُناقشة مضامينها ومَا ورد فيها من أطروحات حول القرآن الكريم وَمصدره .

يتناول هذا المَبحث قضية مصدر القرآن الكريم عند باريت ، فهو يرى إنَّ للقرآن الكريم مصادر عِدة تكونت لدى النبي محمد(ﷺ) ، وَلذلك سنتعرض لأبرز الأفكار التي بنى عليها آرائه .

المطلب الأول : دعوى إنّ مصدر القرآن من أهل الكتاب .

يُصرح باريت في أكثر من موضعٍ في كتاباته أنِّ الوحي القرآني مصدره اليهودية والمسيحية ، محاولاً مِراراً وبشتى الوسائل لإثبات هذا الادعاء ، كما بقوله : " فإذا كان النبي ــ كما كان عليه الأمر في الغالب

(١) ــ ينظر موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي : ٦٢ ٦٣ ، وينظر مجلة الاستشراق ، العدد الثالث : ١١٦ ١١٩ ، وينظر الاستشراق الألماني ، هويدي : ٨٥ ، وينظر الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية : ٧٠ ٧٩ ٩٤ ، وينظر المبشرون والمستشرقون :١٧

ـــ قد دَار في خَلَدِهِ أن يحمل رسالةً إلهية على شكل مَا لدى أهل الكتاب ، فقد كان ضرورياً أن يكـون بـين يديه نص شعائريٌ كما لديهم ، وَلذا فإنّ الوحي القرآني الأول ، الذي تلقاه ، كان في الوقـتِ نفسِـه مُفتتحـاً لذلك النص الشعائري المُرتجى "[١]، وَهذه الأقوال على عمومها يَجدها القارئ مُنتشرة في كتاباته ، حتى أنَّـه عَقدَ مباحثاً في كتابه محمد والقران تتضمن هذا الادعاء منها : مبحث بعنوان (تـأثيرات ـــ إشـعاعات ـــ المسيحيات واليهوديات) وكذلك مبحثاً بعنـوان (الاتجـاه إلى الـديانات الكتابيـة) وتضـمن كتابـه أيضـاً مباحث خاصة أفرد فيها الديانة اليهودية وتأثيرها كمبحث (المستوطنات اليهودية) وَكـذلك أفـرد لديانـة المسيحية مبحثاً بعنوان (التبشير المسيحي) ، وغيرها من المباحث التي تضمنت في مواضع عـدة تقريـرات لهكذا ادعاء .

وَفي هذا السياق يذكر باريت (Paret) إنَّ المُهم عنده تَتبع كل استعارة اسـتوعبها النبـي محمـد مـن ديانات الوحي كما يزعم بقوله : " ولقد تأثر النبي محمد بديانات الوحي الكبرى ، وَظهر ذلـك بوضـوح في الوحي المُتأخر نسبياً ، ولأنَّ النبي كان يعتبر نفسهُ منتمياً إلى نفس الدين والدعوة مثل أهـل الكتـاب ، فقـد كان مُهتماً باستيعاب وَتبني عناصر كثيرة يهودية ومسيحية في موروثة بعد السعي للتعرف عليها ، وَنسـتطيع من خلال القرآن مَعرفة مدى نجاحهُ في ذلك ... وبالنسبة لنا فإنَّ ذلك أمرٌ مُهم لأننا نستطيع أن نتتبَّـعَ كـلَّ استعارةٍ إلى مصدرها "[٢]، وَعليه سنعرض في هذا المطلب الاستعارات التي تتعلق بـالوحي القـرآني ، التـي زَعم باريت أنَّ النبي محمد (ﷺ) قد استوعبها في القرآن الكريم ، ومدى صمودها أمام النقد العلمي .

فَعندما يقول باريت : " فإذا كان النبي ـــ كما كان عليه الأمر في الغالب ـــ قـد دار في خَلَـده أن يَحمـل رسالةً إلهية على شكل ما لدى أهل الكتاب ، فقد كان ضرورياً أن يكون بين يديه نص شعائري كما لديهم . وَلذا فإنّ الوحي القرآني الأول ، الذي تلقاه ، كان في الوقتِ نفسِه مُفتتحاً لذلك الـنص الشـعائري المُرتجـى "[٣] ، فَهو يُصرح بمقولته أنَّ النبي محمد (ﷺ) قَصَدَ بالوحي القرآني الأول أن يُماثل و يُشاكل مـا لـدى آهـل

---

(١) ـــ محمد والقرآن دعوة النبي العربي ورسالته، رودي باريـت، ترجمـة الـدكتور رضـوان السـيد، الـدار العربيـة للعلـوم ـ ناشرون، بيروت لبنان،ط١ ٢٠٠٩م .: ٨٢ ٨٣

(٢) ـــ القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت طُبع عام (١٩٧١م) ، وَهو بالألمانية : (der Koran kommentar und konkordanz): ١٠١ ـــ ١٠٢

(٣) المصدر السابق : ٨٢ ـــ ٨٣

الكتاب من توراة وأناجيل ، لكن أرى قبل أنّ أناقش مقولة باريت ، أطرح سؤالاً له ولمن يوافقه : مَا المَانع أن يكون الإسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات الوحي الإلهي ، الذي أقام الاتصال بين السماء و الأرض على مَدى تاريخ البشرية؟ وَما هو المانع أن يكون القرآن الكريم وحياً أصيلاً مأخوذاً من النبع ذاته الذي اغترفت منه الديانات السماوية ؟ فلماذا يمنع باريت على الإسلام ما يُبيحه لليهودية والنصرانية ؟ أليس مبدأ جواز اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحي مبدأ مُسَّلم به ؟ ... لقد جاء القرآن الكريم بما هو أعظم وأكمل من كل المعلومات التي كانت لدى كل النصارى واليهود في شتى بقاع العالم [١].

وَلذاك تُعد دعوى المُشاكلة التي يتوسل بها باريت (Paret) لإثبات مصدرية القرآن الكريم من التورانجيل لا تتسم بالدقة ؛ لأنَّ " المُتتبع لأيِّ نصٍ من النصوص القرآنية لا يُمكن أن نُقارنهُ بنص من التورانجيل بمجرد الوقوف عند الناحية الشكلية لكل منهما، وأعني بذلك التوافق أو الاختلاف في كلمة أو فعل أو حدث أو أشخاص أو أماكن، وإنَّما النظر إلى الاختلاف الجوهري في ثلاثة أشياء أساسية:

الأول : هو البناء الداخلي للنص ككل.

الثاني: الالتفات إلى الظواهر الخاصة في النص القرآني التي تُميزهُ عن النص التورانجيلي سواء من ناحية التفاصيل أو أسلوب العرض.

الثالث: الالتفات إلى استقراء الدلالات اللفظية والأسلوبية التي استقل بها القرآن الكريم والتي يمكن تتبعها في كتب إعجاز القرآن اللغوي"[٢].

وحتى عندما يشترك هذان الكتابان ــ القرآن والتوراجيل ــ في الحديث عن موضوع واحد ، فإنَّ جوهر المعنى يتشابه بينهما بشكل يستلفت الأنظار ، بحيث يكاد ينحصر الاختلاف في فروق طفيفة وثانوية من الموضوع ، مع تميز النص القرآني في الغالب باتزانه واتجاهه نحو استخلاص العبر والدروس من كل

(١) ينظر نور الإسلام وأباطيل الاستشراق ، د. فاطمة هدى نجا ، دار الإيمان لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣ م : ١٠١

(٢) آثار الاستشراق الألماني في الدراسات القرآنية ، د. أمجد يونس : ٢١٢

عرض ... وأننا لا نسمي الزيادة أو الحذف اختلافاً لأننا نرى أنَّ ما يستحق أن يُطلق عليه ذَلك هو التعارض وَالتناقض ، وَمع ذلك الاختلاف بهذا المعنى نادر جداً بين هذه الكتابين وَقابل للتأويل[١] .

أما المعلومات التي ذكرت في القرآن الكريم وكان لها أصلاً في التورانجيل فلم يكن النبي محمد(ﷺ) ولا قومهُ يعلمون شيئاً عنها : مشيراً القرآن الكريم إلى ذلك كما في قصة نوح ، قال تعالى : { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}[٢] .[٣]

وَيستمر باريت (Paret) في سياق سلب الوحي الإلهي عن القرآن الكريم ، مدعياً أنِّه حتى لغة القرآن العربية كان النبي(ﷺ) يقصد منها مُشابهة ومُشاكلة أهل الكتاب ، فيقول : " فالمسيحيون واليهود المعاصرون للنبي ، كانوا يومها يستعملون الآرامية في تلاواتهم للنصوص المقدسة ، بل كانت الآرامية هي لغتهم الثقافية أيضا ، وحقيقة أن النبي محمداً استخدم نصوصاً مُقدسة باللغة العربية ، فإنه كان بذلك يُكوِّن نصاً عربياً مقابلاً لتلك اللغة الشعائرية الآرامية "[٤] ، ولا أدري هل يريد باريت أن يَكون القرآن بالآرامية حتى يُعدُّ وحياً من الله تعالى ، فهو كعادته لا يرى القرآن الكريم إلا انعكاساً لشخصية النبي محمد(ﷺ) لذا فلغة القرآن هي : اللغة التي ينطق بها محمد ، وأنّه استعملها في النصوص المُقدسة ؟ ، فكلام باريت بما فيه من تعميم ، لا يستند على أي حجة ، فكيف يبعث الله تعالى نبياً بغير لسان قومه ؟ وكيف تُقام الحجة عليهم ؟ وحتى لو جاء محمد (ﷺ) بكتابٍ بالآرامية لم يكن ليؤمن له أمثال باريت ، لكنَّ " الحقيقة أنَّ الله تعالى اختار هذه اللغة لرسالتهِ الخاتمة ، اختار أفضل اللغات لأفضل الكتب : القرآن الذي أنزله على أفضل الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم إلى خير الأمم التي واجبها دعوة الناس إليه ، هذا مَا يقتضيه

(١)ـ ينظر مدخل إلى القرآن عرض تاريخي وتحليلي مقارن ، د. محمد عبد الله دراز ، ترجمة محمد عبد العظيم علي ، دار القلم الكويت طبعة ١ ــ ١٩٨٤م : ١٧٥

(٢) سورة هود ، الآية : ٤٩

(٣) ــ ينظر الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الدكتور محمود حمدي زقزوق :١٠٧

(٤) محمد والقرآن ، رودي باريت : ٩٦

الفهم المنطقي للعلاقة بين هذه الحقائق (القرآن ، اللغة العربية ، الرسول (ﷺ) ، الأمة) فالفضل عمها كلها ، ببركة القرآن والرسول (ﷺ)" [١].

وَلا يكتفي باريت بدعوى المُشاكلة لأهل الكتاب ، بل يذهب إلى أنَّ النبي محمد(ﷺ) قد تـأثر بـديانات الوحي الكبرى ، وَيظهر ذلك التأثر في الوحي المتأخر نسبياً ، كما بقوله : " ولقد تأثر النبـي محمـد بـديانات الوحي الكبرى ، وظهر ذلك بوضوح في الوحي المتأخر نسبياً ، ولأن النبي كان يعتبر نفسه مُنتمياً إلى نفـس الدين والدعوة مثل أهل الكتاب ، فقد كان مُهتماً باستيعاب وتبني عناصر كثيرة يهودية ومسيحية في موروثه بعد السعي للتعرف عليها ، ونستطيع من خلال القرآن معرفة مدى نجاحه في ذلـك ... وبالنسـبة لنـا فـإنّ ذلك أمرٌ مهم لأننا نستطيع أن نتتبَّعَ كلَّ استعارةٍ إلى مصدرها " [٢].

وَقد وَقع باريت بمغالطاتٍ كثيرة في مُقدمتها أنَّه ناقض قوله السابق الذي ادعى فيه أن الوحي القرآني الأول قد شَاكل ومَاثل ما لدى أهل الكتاب ، في حين يذكر هنا أنَّ التأثر ظهر في الوحي المتأخر ، ثمَّ يستمر باريت بالمغالطات فيدعي إنَّ التأثر باليهودية والمسيحية كان عن طريق استيعاب وتبني الأفكار التورانجيلية وضمِّها إلى مورثه في القرآن ، وكان ذلك التأثر يحدث بالتدرج وبطريقة غير واعية ، كـما في قولـه : " ولـذا فقد كان مهتماً بالتأكيد أن يعرف بقدر المستطاع عن كتابات اليهود والمسيحيين ، ومـا كـان هدفـه مـن وراء المعرفة ، الاقتباس أو الترجمة ، وإنَّما حدث ذلك بالتدريج وليس بطريقة واعيـة "[٣] ، فباريـت يسـلب عـن القرآن الكريم الوحي الإلهي ناسباً الاقتباس واستنساخ الأفكار للنبـي (ﷺ) ، ثـمَّ حتـى الإبـداع البشـري يسلبهُ باريت من النبي (ﷺ) ، فليس القرآن الكريم إلا تلفيقاً من التورانجيل تمَّ بطريقة غير واعيـة ، بانيـاً نتائجه على دعوى الاقتباس الباطلة ، وأرى قبل أن أعلق على كلام باريت لابد أن أذكر كيـف تـتم عمليـة الاقتباس ، من المادة المُقتبسة سواء أكانت من التورانجيل أم من غيرها .

أمّا المادة المُقتبَسة فلها طريقتان عند الشخص المُقتبِس :

" أحدهما : أن يأخذ المقتبِس الفكرة بلفظها ومعناها كلها أو بعضها

(١) ـ الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن للدكتور محمد عابد الجابري ، عبد السـلام بكـاري، الصـديق بـوعلام ، الدار العربية للعلوم بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م : ٢١٣

(٢) ـ القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت : ١٠١ ــ ١٠٢

(٣) ـ المصدر السابق: ١٤٨

والثانية : أن يأخذها بمعناها كلها أو بعضها كذلك ويعبر عنها بكلام من عنده . والمقتبِس في عملية الاقتباس أسير المقتبَس منه قطعاً ودائر في فلكه إذ لا طريق له إلى معرفة ما اقتبس إلا ما ذكره المقتبَس منه ، فهو أصل ، والمقتبِس فرع لا محالة ، وعلى هذا فان المقتبِس لا بد له ، وهو يزاول عملية الاقتباس ، لابد له من موقفين لا ثالث لهما :

أحدهما : أن يأخذ الفكرة كلها بلفظها ومعناها أو بمعناها فقط

والثاني : أن يأخذ جزء الفكرة باللفظ والمعنى أو بالمعنى فقط

ويمتنع على المقتبِس أن يزيد في الفكرة المقتبَسة أيّة زيادة غير موجودة في الأصل لأننا قلنا : أنَّ المقتبِس لا طريق له لمعرفة ما اقتبَسهُ إلا ما ورد عند المقتبَس منه ، فكيف يزيد على الفكرة والحال أنه لا صلة له بمصادرها الأولى إلا عن طريق المقتبَس منه .

إذا جرى الاقتباس على هذا النهج صدقت دعوى من يقول أن فلاناً اقتبس مني كذا ، أمّا إذا تشابه ما كتبه الاثنان ، أحدهما سابق والثاني لاحق ، واختلف ما كتبه الثاني عما كتبه الأول مثل :

١ ـــ أن تكون الفكرة عند الثاني أبسط وأحكم ووجدنا فيها ما لم نجده عند الأول

٢ ـــ أو أن يُصحح الثاني أخطاء وردت عند الأول ، أو يعرض الوقائع عرضاً يختلف عن سابقه ، في هذه الحالة لا تَصدق دعوى من يقول أنَّ فلاناً قد اقتبس مني كذا "[1].

وَعند تطبيق هذه القواعد يتبين أن دعوى الاقتباس باطلة ، وَذلك لأنَّ القرآن الكريم لم يقف عند حدود ما ذكره التورانجيل في مواضع التشابه بينها بل :

١ـ عرض الوقائع عرضاً يختلف عن عرض التورانجيل لها

١ ـــ أضاف جديداً لم تعرفه التورانجيل في المواضع المشتركة بينهما

٣ ـــ صَححَ أخطاء خطيرة وردت في التورانجيل في مواضع متعددة

٤ ـــــ انفرد بذكر مادة خاصة به ليس لها مصدر سواه

٥ ـــ في حالة اختلافه مع التورانجيل حول واقعة يكون الصحيح هو ما ذكره القرآن ، والباطل ما جاء في التورانجيل بشهادة العقل والعلم[2] .

---

(١) الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ، د . عبد العظيم المطعني ، دار الوفاء ، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م : ٥٤١

(٢) ينظر الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ، د. عبد العظيم المطعني: ٥٤٢

وَلو افترضنا صِحة مَا ذهب إليه باريت (Paret) من اقتباس القرآن الكريم من التورانجيل ، فلابد أنَّ محمداً كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية ، ولابد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود والأناجيل المسيحية ومختلف كتب صلوات وقرارات المجامع الكنسية وكذلك بعض أعمال الأدباء اليونانيين وكتب مختلف الكنائس والمذاهب المسيحية ، هل يمكن أن يعقل هذا الكلام الشاذ[١] ، فدعوى الاقتباس بلا برهان هي : دعوى باطلة ، فلم يكن في عهد الرسول(ﷺ) أي ترجمة عربية للتوراة أو الإنجيل ، ولا كان محمد (ﷺ) أو غيره من أهل مكة متقناً للغة العبرية ، ولذلك تحدى القرآن الكريم اليهود فيما دار بينهم وبين النبي(ﷺ) ، فقال لهم : {فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[٢]، وأيضا تحدى أهل الكتاب بوجه عام في قوله تعالى : {فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[٣] ، وَهذا مَا أكده باريت بقوله : "وقد كان لديهم كتابهم المقدس التوراة ، والذي لم يترجم إلى العربية ، وَهكذا فقد كان يُدرس ويُتلى بلغةٍ غريبةٍ عن لغة المحيط وثقافته "[٤] ، ثمَّ إنِّ التوراة والإنجيل لم يكونا منشورين بحيث يستطيع عامة اليهود والنصارى أن يحفظوا منها شيئاً ، فكيف بغيرهم ، فضلاً أنِّ "أول طبعة عربية للعهد القديم قد نُشرت بعد المسيح بتسعة قرون ، أي بعد موت محمد صلى الله عليه وسلم بمَا يَقرب من ثلاثة قرون ، بَينما أول طبعة رَسمية عربية للعهد الجديد قد ظهرت بعد ذلك بقرنين ... ثمَّ إننا الآن بعد عصر الطباعة لا نرى النصارى واليهود يحفظون شيئاً من التورانجيل لَما في أسلوبه الذي لا يُستساغ حفظه "[٥].

وَإذا قبلنا ما يذهب إليه باريت من إنَّ أي تشابه كلي كان أم جزئي بين أي كتابين أو ديانتين هو اقتباس ، معتبرين أنَّ كل تشابه يقتضي أخذ اللاحق عن السابق كقاعدة مُضطردة هو اقتباس كما هو منهج باريت ،

(١) ينظر دفاع عن القرآن ضد منتقديه، د. عبد الرحمن بدوي ، ترجمة كمال جاد الله ، الدار العالمية للكتب والنشر ، (ب ت) : ٢٤

(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ٩٣

(٣) سورة الصافات ، الآية : ١٥٧

(٤) ـ القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت:١٦

(٥) ــ السيرة النبوية وأوهام المستشرقين ، عبد العال محمد الجبري : ١٥٧

فما تعليله للتشابه الذي يصل إلى درجة التطابق بين الإنجيل وكتب البراهمة والبوذية وغيرها من الديانات الوضعية [١].

فالباحث يرى : إنَّ عَدم ثبوت دعوى الاقتباس ، لا يعني إنكار التوافق والاشتراك الموجود بين القرآن الكريم وبين التورانجيل ، وَما تلك المُشتركات إلا لأن القرآن الكريم هو خاتم تلك الكتب التي احتوت في جوانب منها معاني الوحي الإلهي .

وَيذكر باريت (Paret) مثالاً على دعوى اقتباس القرآن الكريم مواد وعناصر من التورانجيل ، فيقول: " فإنَّ عناصر رئيسية من اليهودية والمسيحية وصلت إلى النبي ، وأثرت فيه . وفي القرآن شواهد كثيرة وواضحة على ذلك ... وَأول معالم أو عقائد تلك الرسالة الإيمان بإله واحد خالق قادر "[٢] .

إنَّ دَعوى باريت في اقتباس القرآن لعقيدة التوحيد من اليهودية والمسيحية لهي من المُغالطات التي يسوقها في كتاباته ، فمفهوم التوحيد لدى المُسلمين يختلف تماماً لدى تلك الديانتين ، بل وَهي القضية الرئيسية الفارقة بين الإسلام من أول البعثة النبوية وبين اليهودية والنصرانية .

يعد التوحيد أساس الدعوة الإسلامية القائمة على إفراد الله بالعبادة دون غيره ، وَتنزيهُهُ عن كل نقص، رافضاً كل قول يَنسب لله تعالى تجسيداً أو تشبيهاً أو حلولاً ، ولأجل ذلك " اتجه الوحي القرآني إلى أن يُقرر النتيجة الحاسمة للفكرة التوحيدية (الله واحد ، مُخالف للحوادث ، رب العالمين) فاخرج بهذه الطريقة الحاسمة ذات الله جلَّ شأنه من نطاق الأنانية اليهودية ، والتعدد المسيحي ،ولقد تقررت هذه العقيدة الجوهرية للإسلام الموحد في سورة من أربع آيات : { قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [٣] ، وَلذلك فإنَّ " اليهود لم يكونوا يوماً ما على التوحيد الخالص إلا في فترة قليلة في عهد موسى عليه السلام ، ومع ذلك وهو بين ظهرانيهم ومعه آياته البينات طلبوا منه أن يجعل لهم رباً مادياً

(١) ـ ينظر الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده ، د . محمود ماضي ، دار الدعوة الاسكندرية ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م :١٤٥

(٢) ـ القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت: ٦٥

(٣) الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر دمشق ، الطبعة الرابعة ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م : ٢٠١

كغيرهم من أهل الوثن فقالوا :{ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }[١] "[٢]، وحتى عندما ظهرت الوحدانية عند بني إسرائيل كان معناها : " إنَّ هناك إلهاً واحد لبني إسرائيل ، ولغير بني إسرائيل آلهتهم ، فالتعدد كان موجوداً "[٣].

أمّا مَفهوم الإله عند النصارى : فهم يؤمنون بالاقانيم الثلاثة : الأب الإله المالك لكل شيء ، والمسيح ابنه الوحيد يسوع ، وروح القدس الذي حَلَّ في مريم ، فهذه الاقانيم الثلاثة يزعمون أنَّها: وحدانية في تثليث وتثليث في وحدانية ، وَهو زعم باطل صعب الفهم[٤] ، فمفهوم التوحيد في المسيحية هو في حقيقته الظاهرة تعدد لآلهةٍ مُختلفة ، وَهذا المفهوم مُغاير تماماً لحقيقة الإسلام الذي قامت دعوته على وحدانية المعبود، وتنزيههُ عن كل صفات النقص ، فلم يكن له ولداً ، ولا يُمكن للإله أن يُولد ؛ ولذلك كان" الدين الإسلامي هو الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشرياً ، أمّا في المسيحية فإنَّ لفظ الإله تحوطه تلك الصورة الآدمية لرجل شَيخٍ طاعن في السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد في الوجه غائرة إلى لحيةٍ بيضاء مُرسلة تُثيرُ في النفس ذكرى الموت والفناء ...كذلك يهوه الذي يمثلون به طهارة التوحيد اليهودي فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر المُتهالكة "[٥]، أمّا القرآن الكريم فلم يذكر عن الله تعالى صورة أو تجسيماً ، ولذلك تفرض هذه الفروقات الأساسية في عقيدة التوحيد على باريت أن لا يقرر لهكذا ادعاء ظاهر البطلان لكل مُنصف ، فلقد رَفض الإسلام كل أنواع الشرك منذُ بداية الدعوة الإسلامية مؤكداً على أفراد الله تعالى بالعبادة وحده .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٨

(٢) ـ قضية الإلوهية في الأسفار اليهودية ، د. عبد المنعم فؤاد ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م :١٠٩

(٣) ــ المسيحية مقارنة الأديان ، د. أحمد شلبي : ٢٨٨

(٤) ــ ينظر موسوعة الفرق والأديان في سؤال وجواب ، إسلام محمود دربالة ، مكتبة الإيمان ـ المنصورة ، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م : ٤١٤

(٥) ـ من افتراءات المستشرقين على أصول العقيدة الإسلامية ، د . عبد المنعم فؤاد ، مكتبة العبيكان الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م :٨٨

فلم يكن لليهودية والمسيحية ذاك التأثير في المجتمع العربي عامة ، والمجتمع المكي خاصة الذي هُدد بالإبادة وهدم الكعبة من حملة أبرهة الحبشي المسيحي ، وكذلك المجتمع المدني الذي ضاق بأفعال اليهود من إشعال الفتن والسيطرة الاقتصادية ، فكيف يسعى محمد(ﷺ) إلى الاقتباس من هؤلاء المنبوذين ، ويجعل منهم المثل الأعلى كما يزعم باريت في تكوين الرسالة والنص الشعائري (القرآن الكريم) ، ثم إن كانت اليهودية والمسيحية بهذا التأثير ، فما تعليل باريت لنجاح محمد(ﷺ) في دعوته في حين فشلت اليهودية والنصرانية في تحقيق أي نجاح يذكر ، فإذا كانت النصرانية واليهودية بهذا الفشل ، فلماذا سعى محمد(ﷺ) إلى الاقتباس منهما كما يذهب باريت ، وإذا تجاوزنا الوضع السياسي والديني للجماعات اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية فإن هناك من تهود وتنصر من أفراد العرب ، فلماذا لم تنجح دعوة أولئك مع أنّ التورانجيل كانت لديهم وكان منهم شعراء وقادة ، كل هذه الحقائق تُظهر زيف هذه الدعوى ، ولذلك يمكن القول : إنّ هذه الأديان وغيرها لم يكن لها أي أثر ايجابي ومقبول لدى العرب ، بل كان أثرها سلبياً وغير مقبول ، فلم يُرحِب العرب الوثنيون باليهودية والمسيحية وغيرها من الأديان ، فكل دين من تلك الأديان كان له كيانهُ الخاص ، وَقد بَين القرآن الكريم ضلالات تلك الأديان وانحرافاتها العقدية والسلوكية .

المطلب الثاني : دعوى إنّ مصدر القرآن تعليمٌ بشري .

يَذكر باريت (Paret) إنّ النبي محمد (ﷺ) تعلم القرآن الكريم من مَصادرٍ وَرواة ، وهو اتهامٌ قديم وَجهَهُ المشركون إلى النبي محمد(ﷺ) ، ليكرر باريت هذا الاتهام بصيغة جديدة محققاً المقصد ذاته وهو: دعوى إنَّ مصدر القرآن الكريم من البشر لا من الله تعالى ، كما بقوله : " إنَّ أخذ مواد مسيحية ويهودية واستيعابها شَكلَ ما يُعتبر مسألة نفسية، فحتى الوثنيين المكيين لاحظوا ذلك وأخذوه عليه ، فقد استنتجوا أنَّ محمداً الذي كان يعتبر ما يتلوه عليهم وحياً إلهياً إنَّما كان يستمده من مصادر ورواة ؛ فتوصلوا إلى أنّ الوحي القرآني ربما كان خديعة ، وقد اعتبر النبي أنَّه يستطيع الرد على هذا الاعتراض ، والمواطن التي يتحدث فيها القرآن عن ذلك هي التالية : السورة ٢٥ ـــ الفرقان ـــ : ٤ ــ ٦ : {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } .

سورة ١٦ ـــ النحل ـــ : ١٠٣ : {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}

...كانت تسويغات النبي ، كما تَبدو على لسانهِ في الآيات القرآنية التي أثبتناها ، غير مقنعة لخصومه ومجادليه ... وفي الآية الثانية التي يُحاجج بها القُرشيين ، يقول القرآن على لسانه إن دعوى النقل غير صحيحة ، فالرجل الذي يزعمون أنه يُعلم النبي ليس عربياً أو إن اللغة العربية ليست لغته الأم ؛ أمّا القرآن فينطق بلسان عربي مبين ، بيد أن هذا البرهان على الأصالة ليس مُلزماً أيضا ، بل الأحرى القول أنه قد يدل على وجود شخص أجنبي بالفعل يتلقى النبي من معلوماته ، وإيراد هذه المعلومات بالعربية بعد ذلك لا يجعل الأمر مُستحيلاً "[1].

ويؤكد مقولته السابقة بقوله :" لقد كان متأكداً من شخصيته ودعوته وما جاء به ، بحيث تجرأ على إيراد دعاوى الخصوم وعلى ألسنتهم في قلب النص القرآني" [2].

متوسلاً للوصول إلى هدفهِ بدعوى بشرية القرآن الكريم وذلك بقوله : " إنّ أخذ مواد مسيحية ويهودية واستيعابها شَكلَ ما يُعتبر مسألة نفسية، فحتى الوثنيين المكيين لاحظوا ذلك وأخذوه عليه ،. فقد استنتجوا إنَّ محمداً الذي كان يعتبر ما يتلوه عليهم وحياً إلهياً إنَّما كان يستمده من مصادر ورواة ... بل الأحرى القول أنه قد يدل على وجود شخص أجنبي بالفعل يتلقى النبي من معلوماته ، وإيراد هذه المعلومات بالعربية بعد ذلك لا يجعل الأمر مستحيلاً "[3].

فَباريت يَدعي إنَّ النبي محمد (ﷺ) تلقى القرآن الكريم من مصادر ورواة ، ولعلهُ يعني بقوله : (مصادر) المعلومة وَحاملها ، وَبقوله: (رواة) يعني: حامل المعلومة . ولذلك ستكون مُناقشة باريت بعد تفكيك أقواله في هذين الجانبين .

الجانب الأول : دعوى التعلم من رواة أجانب .

يَذهب باريت (Paret) في دعواه أن النبي محمد(ﷺ) كان يتعلم القرآن الكريم من رواة أجانب ، ثمَّ يصوغ تلك المعلومات بالعربية ، موافقاً في دعواه مُشركي مكة ، وأرى قبل أن أناقش دعواه لا بد من التعرض على كيفية جَريان عملية التعلم بين النبي العربي والمعلم الأجنبي ، والتي لا تخرج عن ثلاث احتمالات لا بد أن تسلكها عملية التعلم وهي:

(١) ينظر القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت: ١٠٢ ـ ١٠٣

(٢) المصدر السابق : ١٠٦

(٣) المصدر السابق : ١٠٢ ـ ١٠٣

١ــــ أنّ يكون النبي محمد (ﷺ) تعلم القرآن الكريم من مصدرٍ أجنبي باللفظ والمعنى ، ومن يذهب لهذا المذهب والادعاء ، يجب أن يُثبت من هو : هذا الأجنبي ؟ ، ثمَّ لماذا لم يَنسب القرآن الكريم إلى نفسه ؟ ولماذا سكت عنهُ كفار مكة ؟ ومتى تعلم محمد(ﷺ) القرآن من هذا المعلم الأجنبي ؟ ، وَهل لازم محمد (ﷺ) هذا المعلم على مدار أعوام الدعوة ؟ وَلماذا اتبع من آمن بالإسلام محمد(ﷺ) ولم يتبع هذا المعلم الأجنبي؟.

٢ ــ أو أن يكون النبي محمد(ﷺ) تعلم القرآن الكريم من مصدرٍ أجنبي باللفظ دون المعنى ، ومن يذهب لهذا يدعي إنَّ القرآن وافقت ترتيلاته الصوتية ما عند المصادر الأجنبية التي تعلم منها النبي محمد(ﷺ) من حيث النغمة الموسيقية لتلك الكتب ، وهذا مَا يشير إليه باريت في قوله :" يوجه القرآن نظرنا عندما يُسميها تلاوات وقراءات ...فالقراءة الشعائرية باعتبارها وظيفة في الصلوات ـ منظوراً إليها من داخل الجزيرة العربية ـ تجد موطنها الأصلية على أطراف الجزيرة العربية ، في المنطقة المُسماة بالهلال الخصيب ، والذي كانت أكثرية سكانهُ وقتها من المسيحيين ، والى حد أقل من اليهود ، كما إنَّ الآرامية كانت لغته الدينية والشعبية ، فالمسيحيون واليهود المعاصرون للنبي ، كانوا يومها يستعملون الآرامية في تلاواتهم للنصوص المقدسة ، ... فإنّه كان بذلك يُكوِّنُ نصاً عربياً مُقابلاً لتلك اللغة الشعائرية الآرامية "[1] وهنا يجب أن يُثبت كيف تعلم محمد تلك الترتيلات ومتى ؟ فضلاً أن هذا الادعاء لا يقبلهُ العقلاء ؛ فأداء القرآن الكريم وبلاغته التي أقرَّ بها العرب بكافرهم قبل مؤمنهم وأعجز فصحائهم كيف للنبي (ﷺ) أن يقتبسها من الأعاجم ، فكيف يمكن لأعجمي لا ينطق بالعربية أن يُكوِّن وينشأ مقاطع ترتيلية بهذا التأثير في نفوس السامعين ، في حين لم تجد تلك التلاوات الآرامية أثراً يُذكر في نفوس العرب ؟ فضلاً عن ذلك فإنَّ السامع لا يَجدُ أي تشابه بين التلاوة القرآنية للآيات وبين ترتيلات الرهبان أو سجع الكهان ؛ ذلك لانَّ : " الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري.. أنَّ له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً"[2]

٣ــــ أَو أنّ يكون النبي محمد(ﷺ) تعلم القرآن الكريم من مصدر أجنبي بالمعنى دون اللفظ ، ومن يذهب لهذا المذهب والادعاء يجب عليه أن يجيب على تساؤلات عديدة منها : من هو هذا الأجنبي ؟ وَكيف استطاع أن يوصل تلك المعاني إلى النبي محمد(ﷺ) ؟ وهل كان يتكلم بالعربية أمّ كان النبي محمد (ﷺ) يتكلم

(١) محمد والقرآن ، رودي باريت : ٩٥ ــ ٩٦

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق القاهرة ، الطبعة السابعة عشر ١٤١٢هـ : ٣ / ١٧٨٦

بلسانه الأعجمي ؟ ثمَّ من أين جاء ذاك المعلم بتلك المعلومات الموجودة في القرآن ؟ ولماذا لم ينسبها إلى نفسه ؟ ولماذا لم يكتشف أصحاب محمد(ﷺ) قبل أعدائه هوية ذلك المعلم ؟ وَمتى تعلم(ﷺ) تلك المعارف وكم لازمه ؟ .

وَالاحتمال الأخير هو الذي يُحاول باريت فيه إثبات دعواه ، وذلك بقوله : " بل الأحرى القول أنه قد يدل على وجود شخص أجنبي بالفعل يتلقى النبي من معلوماته ، وإيراد هذه المعلومات بالعربية بعد ذلك لا يجعل الأمر مستحيلاً "[١]، لكن باريت لم يُخبر من هو هذا الأجنبي أو لم يستطع ، وبذاك كان المشركون أنصف في دعواهم من باريت ، فهم حينما وَجهوا اتهاماً كهذا إلى النبي محمد (ﷺ)، كان اتهامهم قائماً على دليل وإن كان باطلاً وضعيفاً إلا إنّه في سياقه العلمي الصحيح ، فقالوا إنّ محمداً (ﷺ) تعلم القرآن من معلم وحددوا من هو ذاك المعلم ، فقالوا : حداد رومي ، " وَغاب عنهم أنَّ الحق لا يزال نوره ساطعاً يدل عليه لأنَّ هذا الحداد الرومي أعجمي لا يحسن العربية فليس بمعقول أن يكون مصدراً لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ }[٢] "[٣] ، وقالوا غيره ، وَقد أتى القرطبي بكل الأقوال التي قيلت في تفسير الآية وأورد أسباب نزولها ، وذكر أسماء الذين قيل أنَّ النبي(ﷺ) كان يجلس معهم ، ثمَّ قال : " والكل مُحتمل فإن النبي صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليُعلمهم مِمّا علمهُ الله وكان ذلك بمكة ، وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ، لأنّه يجوز أن يكونوا أومَئوا إلى هؤلاء جميعاً وزعموا أنّهم يعلمونه "[٤].

وعلى الرغم من ضعف اتهامهم إلا إنَّهم أنصف مِمّا جاء به باريت وأقرب إلى العقل ، أمّا باريت فيُلقي التهم دون أن يُحدد معالم دعواه ، لكن بلاغة القرآن تقطع الطريق أمام باريت وَمن سبقه من المشركين بدليل

---

(١) ـ القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت: ١٠٣

(٢) ـ سورة النحل ، الآية : ١٠٣

(٣) ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م : ٢ / ٣٢٧

(٤) الجامع لإحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين القرطبي المتوفى ٦٧١هـ ، تحقيق هشام سمير البخاري ، دار عالم الكتب الرياض ، طبعة عام ١٤٢٣ه ــ ٢٠٠٣م : ١٠ / ١٧٨

لا يختلف فيه العقلاء ، وهو إنَّ اختلاف اللغة يمنع التعلم ، فهكذا دعوى لا تُقبل إلا ببيان من هو هذا الأجنبي وكيف ومتى تعلم منه النبي محمد(ﷺ) .

فباريت (Paret) كما هو منهجه في كثير من الأحيان يطرح أفكاره بضبابية وإبهام ، مدعياً أنَّ النبي محمد (ﷺ) تعلم من مصدر أجنبي ، دون أن يُبين كيف تعلم ، وهنا تُفترض أن تكون الإجابة بأحد الاحتمالات : أمّا أن يكون النبي محمد(ﷺ) مُتقناً للغة هذا المعلم الأجنبي ، وإمّا أن يكون هذا المعلم الأجنبي مُتقناً للغة العربية التي ينطق بها محمد(ﷺ) ، وأمّا أن يكون بينهما وسيط يُترجم الكلام بين المعلم والتلميذ ، فالعلمية والموضوعية تفرض على باريت حين يوجه اتهام كهذا ، أن يُحدد كيف تعلم النبي محمد(ﷺ) من هذا المعلم المزعوم ، أمّا مُجرد موافقة باريت لخصوم النبي محمد (ﷺ) من مُشركي مكة من غير أن يقدم دليلاً واحداً يسند مذهبه ، كما في قوله :" فحتى الوثنيين المكيين لاحَظوا ذلك وأخذوه عليه ، فقد استنتجوا إنّ محمداً الذي كان يعتبر ما يتلوه عليهم وحياً إلهياً إنّما كان يستمده من مصادر ورواة " [١].

فَهذا المنهج مِمّا يجب أن يَترفع عنه كل مُنصف ، لكن باريت حاول في هذه المرة أن يَتسم بالعلمية حين ادعى إنَّ الكيفية التي تلقى النبي محمد(ﷺ) منها معلوماته كانت بالطريقة الشفوية، كما في قوله : " وفي الحقيقة ، فالذي حدث أمرٌ آخر تماماً كما نعرف ، فقد تعرف النبي محمد على تلك الكتابات اليهودية والمسيحية غير عربية ، لكن تلك المعرفة تمت بطريقة شفوية ، وما رأى النبي في ذلك غير الإثراء لمعارفهِ الخاصة أو الموحاة ، فالمعارف التي حصل عليها بالرواية الشفوية ، صارت في اللاوعي عنده ملكاً خاصاً ، وشكلت فيما بعد أصلاً لإنزال عربي أصيل " [٢] ، ففي هذه العبارة يوضح باريت أن حصول النبي(ﷺ) لتلك المعلومات كانت بالطريقة الشفوية ، من دون يبين كيف أمكن التفاهم بين النبي محمد(ﷺ) وبين ذلك المعلم الأجنبي ، فالذي ينسب المستشرقون " إليه تعليم صاحب الرسالة (ﷺ) رجلاً أعجمياً لا يعرف العربية، ولا النبي يعرف اللغة الأعجمية التي يعرفها ذلك الرجل وهو دليل عقلي قاطع مانع؛ إذ لا يصح

(١) محمد والقرآن ، رودي باريت : ١٠٢ ١٠٣

(٢) القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت: ١٤٩

في العقل أنَّ رجلين لا يعلم كل منهما لغة الأخر أن يكون أحدهما أستاذاً ومعلماً للآخر، وهذا الدليل قائم في العقل إلى الآن، وحتى قيام الساعة"[١] .

وَمع إنَّ اختلاف اللغة يمنع التواصل بين الطرفين ، نذهب إلى افتراض لم يفترضه باريت ، وهو أن يكون ذلك المعلم الأجنبي يعرف اللغة العربية وأنَّه استعملها في عملية النقل الشفوي لتلك المعلومات والمعارف إلى محمد النبي(ﷺ) ، ففي ادعاء كهذا يتم تجاوز عقبة اختلاف اللغة ، لكنهُ يصطدم بسؤال منطقي وهو : لماذا لم ينسب ذاك المعلم القرآن لنفسه ؟ ولماذا سكت هو أوكفار مكة عن النبي محمد (ﷺ) ــ التلميذ ــ بل وحتى أتباع محمد(ﷺ) ؟ في حين يفرض باريت على القارئ نتيجة مقررة مُسبقاً مفادها : إنَّ النبي محمد(ﷺ) تعلم القرآن من معلم أجنبي بطريقة شفوية وانتهى .

لكننا إذا تجاوزنا جميع تلك المُغالطات التي بلا شك أنّ باريت تعمد الوقوع بها كعدم التعريف بمن هو ذلك المعلم الأجنبي ؟ وكيف تمت الطريقة الشفوية لنقل المعلومات بين المعلم وبين التلميذ ؟ متجاهلاً ذكر المدة الزمنية التي تعلم خلالها النبي محمد(ﷺ) من ذاك المعلم الأجنبي ؟ وكم لازمه ؟ علماً أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة ، وهذا ما يقرره باريت نفسه[٢] مما يلزمه الإجابة على هذا التساؤل وعدم تجاوز هذه المحطة المهمة ، فالقرآن الكريم : " نزل مُفرقاً في ثلاث وعشرين سنة لِحِكَمٍ جليلة أرادها رب العباد ، ومن هذه الحكم الإعجاز في زمن التنزيل فهناك مُتسع زمني لمن أراد أن يُعارض القرآن فليعارضه لو كان بمقدوره، وليستعن بمن شاء من الكهان وأهل الكتاب"[٣] ، هذا كلهُ من ناحية الراوي وكيف يتمُ التعلم منه .

أمّا من ناحية المعلومة التي يُمكن للمعلم الأجنبي أن يَعيها :

فإذا تجاوزنا من هو هذا المعلم الأجنبي ، وكيف تمت تلك الطريقة الشفوية ومتى ؟ ووافقنا باريت في افتراضه ودعواه أنَّ النبي محمد(ﷺ) صَاغ بلُغتهِ تلك المعارف والمعلومات التي تعلمها من معلمهِ الأجنبي ، فما هي تلك المعلومات التي كان يمتلكها ذلك المعلم ؟ فباريت يدعي أنَّ النبي محمد (ﷺ) كانت لديه

(١) ــ سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية منهاجا وسيرة ، عبد العظيم إبراهيم المطعني ، مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٣م : ١٢٢

(٢) ينظر محمد والقرآن ، رودي باريت : ٧٥

(٣) أضواء على الثقافة الإسلامية ، د. نادية شريف العمري : ٨٥

معارف يهودية ومسيحية وحتى من أناجيل منحولة ، ومعارف تاريخية ، بل وحتى معارف لم تعرفها اليهودية والمسيحية ولا حتى العرب الوثنيين ؟ متجاهلاً ما في القرآن الكريم من إبداع وإعجاز في الناحية اللفظية والبلاغية ، في حين صَب غالب اهتمامه على دعوى الاقتباس والتعلم من الأوّلين .

وَيُورد سيد قطب[1] هذا المفهوم مؤكداً أنَّ القرآن الكريم لا يمكن أن يكون مصدرهُ من رجل واحد ولا من أمّةٍ كاملة ولا من البشر جميعاً ، كما يقوله : " إنَّ أعجمياً يملك أن يعلم محمداً هذا الكتاب. ولئن كان قادراً على مثله ليظهرنَّ به لنفسه! واليوم، بعد ما تقدمت البشرية كثيراً ، وتفتقت مواهب البشر عن كتب ومؤلفات، وعن نظم وتشريعات يملك كل من يتذوق القول، وكل من يفقه أصول النظم الاجتماعية، والتشريعات القانونية أن يدرك أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من عمل البشر...

وَحتى الماديون الملحدون في روسيا الشيوعية، عند ما أرادوا أن يطعنوا في هذا الدين في مؤتمر المُستشرقين عام(١٩٥٤م) كانت دعواهم أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد- هو محمد- بل من عمل جماعة كبيرة. وأنَّه لا يمكن أن يكون قد كتب في الجزيرة العربية بل إن بعض أجزائه كُتب خارجها ! دعاهم إلى هذا استكثار هذا الكتاب على موهبة رجل واحد. وعلى علم أمة واحدة...

ولم يقولوا ما يوحي به المنطق الطبيعي المستقيم: إنه من وحي رب العالمين ، لأنهم ينكرون أن يكون لهذا الوجود إله، وأن يكون هناك وحي ورسل ونبوات! فكيف كان يمكن- وهذا رأي جماعة من العلماء في القرن العشرين- أن يعلمه بشر لسانه أعجمي عبد لبني فلان في الجزيرة العربية؟! ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة فيقول: {إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللهِّ لا يَهْدِيهِمُ اللهُّ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ}[2]...

فهؤلاء الذين لم يؤمنوا بآيات الله لم يهدهم الله إلى الحقيقة في أمر هذا الكتاب، ولا يهديهم إلى الحقيقة في شيء ما. بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى {وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ} بعد ذلك الضلال المقيم...

---

(١) سيد قطب (١٩٠٦ ــ ١٩٦٦م) : كاتب وأديب ومفكر إسلامي ، له إسهامات مجيدة في قضايا الأدب والفكر الإسلامي والدعوة ، ومن أشهر مؤلفاته : في ظلال القرآن ، وهذا الدين ، وخصائص التصور الإسلامي ، والمستقبل لهذا الدين . ينظر المشترك الإنساني ، راغب السرجاني : ٥٧٨ الهامش .

(٢) ــ سورة النحل ، الآية : ١٠٤

ثمَّ يُثني بأن الافتراء على الله لا يَصدر إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون ، ولا يمكن أن يصدر من الرسول الأمين"[١].

ثُمَّ فضلاً عن ذلك : " أنَّ معارف القرآن وعلومه وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلية و فصاحته ، كلها فوق مستوى العقول البشرية أن تأتي بمثلها "[٢] ، وهنا قضية مُهمة لا تقل عن أهمية المحتوى القرآني التشريعي والتنظيمي للحياة البشرية ، فإخبار القرآن الكريم في بعض مواضعه عن الأمور الغيبية ، لهو من أوضح الأدلة لنفي بشرية القرآن ، لكن يُمكن لباريت ومن ينهج منهجه أن يؤول ما جاء بالقرآن من أخبار السابقين بأن النبي محمد(ﷺ) قد تعلمها من مصادر ورواة ، لكنّ هذا المنهج وأتباعه يقف مهزوماً ، أمام ما أخبر به القرآن من أمور غيبية تقع في المستقبل ، فمنها ما وقع : كإخبار القرآن بانتصار الروم على الفرس ، وإنتصار المؤمنين على المشركين ، ودخولهم للمسجد الحرام آمنين كما في قوله تعلى { لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ}[٣] ، وغيرها من الأخبار .

ويقول الدكتور عرفان عبد الحميد: " وإنَّما وَددتُ الإشارة إلى أن دعوى الاستمداد والأخذ من مصادر أجنبية زَعمٌ باطل حتى في صورته الشكلية الظاهرة ، ذلك أن طبيعة المسألة تقتضي عادةٍ أن يُضفي المُقلد الآخذ أسباب الكمال ومعاني الأصالة ، وسمات الحق على المصدر الذي أستسقى منه أصول فكره وعلمه، وأن ينزل صاحبه منزلة العدل في الحكم ، والنزاهة في الرأي ، والسداد في الفكرة والعقيدة أمّا إذا وجدنا الأمر معكوساً فإنَّ المنطق السليم يُحتم خلاف ذلك "[٤] ، فالقرآن الكريم بما فيه من كمال وتنزيه للإله المعبود وأنبيائه ، لا يمكن أن تستمد معارفه من التورانجيل وما ورد فيها من نسبة النقص لله ورسله .

كيف يستطيع المعلم الأجنبي أن يصل إلى هذه الأفكار والمعاني الجَمَّة التامة المُتضاعفة في الحسن والرواء ، التي تصل إلى درجة الشمول والإحاطة بكل أنواع العلوم ؟ وكيف لمثل هذا الرجل الأعجمي أن

---

(١) ــ في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٤ / ٢١٩٥

(٢) ــ بشرية المسيح ونبوة محمد في نصوص كتب العهدين ، د. محمد أحمد محمد خليل ملكاوي ، مطابع الفرزدق التجارية ، ط١ ١٤١٣هـ ١٩٩٣م : ١٨١

(٣) سورة الفتح ، الآية : ٢٧

(٤) ـ نقلاً عن كتاب : المستشرقون والقرآن الكريم ، د. محمد أمين حسن ، دار الأمل الأردن ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م : ٢٦٧

يظل مغموراً ويعيش مدحوراً مطحوناً ، ولديه كل هذه العلوم المعجزة والمعارف المتنوعة ؟ وكيف يجوز أن يجود شخص ، بكل هذه الأفكار والمعاني ، لشخص لا يعرفه ولا ينتفع به ؟ إننا لكي نحصل على علم كعلم القرآن الكريم أو قريب منه ، نحتاج إلى عقول علماء أهل الدنيا معاً إنسهم وجنهم ، وليس إلى شخص واحد أعجمي اللسان ، غلف البيان ، لم يسجل له تأريخ أي شأن ، ولا نعرف متى ولد ، ولا كيف عاش ، ولا متى مات ، بل إننا لا نعرف له اسماً ـ على وَجه التحقيق ـ ولا مهنة على وجه التدقيق ، ثمَّ إنَّ الآية واضحة في رد دعوى المشركين قديماً والمستشرقين حديثاً ، في أنَّه لم تكن هناك لغة مُشتركة يتفاهم من خلالها محمد مع هذا المعلم الأجنبي [١] .

أمّا الجانب الثاني : وهو دعوى التلقي من مصادر ، وفي هذا الجانب سنقتصر على المعلومة المكتوبة ، لأننا ناقشنا قضية التعلم من الرواة فيما سبق .

وإن كان باريت(Paret) يُصرح في كتاباته أنَّ دعوى تلقي النبي محمد(ﷺ) للمعلومات كان بطريقة شفوية ، إلا أنَّ الذي يقرأ كتاباته يفهم في كثير من المواضع أن النبي محمد(ﷺ) كان يستطيع القراءة والكتابة، وأنَّه قرأ كُتب اليهودية والمسيحية ، فباريت لم ينفي أمية النبي(ﷺ) كما في قوله: " ولذا فقد كان مُهتماً بالتأكيد أن يعرف بقدر المستطاع عن كتابات اليهود والمسيحيين ، وما كان هدفه من وراء المعرفة أو الترجمة ، وإنَّما حدث ذلك بالتدريج وليس بطريقة واعية "[٢] ، ذاهباً في مقولته هذه إلى أبعد من ادعاء عدم أمية النبي محمد(ﷺ) إلى القول أنَّ له مَعرفة باللغات الأجنبية ، فهو يصور النبي(ﷺ) مُبدعاً عربياً ذا ثقافة واسعة ، فلا يعدو القرآن في رأي باريت أن يكون عملاً فنياً وإبداعاً عربياً من مُفكر وشخصية اجتماعية كبيرة ظهرت بعد ستة قرون من ميلاد المسيح ؟ لكن المهم لدى باريت في ذلك هو : تحقيق الغاية من سلب الوحي الإلهي عن القرآن الكريم .

إنَّ قضية تعلم النبي محمد (ﷺ) من كتابات يهودية أو مسيحية تقودنا إلى مقدمة مهمة وهي حقيقة أمية النبي محمد (ﷺ).

---

(١) ـ ينظر القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية ، د محمد أبو ليلة ، دار النشر للجامعات مصر ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م : ١٠٧

(٢) ـ محمد والقرآن ، رودي باريت : ١٤٨ وللمزيد : القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت ، ص٥٦ .

إنَّ محاولات باريت من التشكيك في أمية النبي محمد لا تستند على أي مُستند تاريخي ، بل على العكس إنّ " أمية النبي صلى الله عليه واله سلم ثابتة تاريخياً وقد نقل إلينا بالتواتر ، أنه كان لا يعرف الكتابة ولا القراءة ، قال الله جل وعلا : {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }(١) ، فلم يقرأ في صحيفة ، ولم يكتب شيئاً بيده منذُ ولد إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى."(٢) ، وهنا لابد من التنبيه على معنى الأمية التي " لا تعني إلا الجهل بالقراءة والكتابة ، وإلا فعقل النبي صلى الله عليه وسلم وتفكيره ونطق لسانه لا يُضاهيهِ فيهنَّ أحد ، لأنَّه المختار من العباد لحمل آخر الرسالات السماوية وأشرفها ، وأنَّ الأمية هنا لا تتعدى حدود جهل القراءة والكتابة ، وهو بلا شك أمرٌ إلهي لإرادة حكيمة "(٣).

فضلاً عن ذلك أنَّ هذا الأمر لا يُعدُّ عيباً ، فإنَّ عدم الاهتمام بالقراءة والكتابة كان منتشراً في البيئة العربية ولا يقتصر على قريش أو النبي محمد ، وهذا ما يذكره ول ديورانت (Will Durant) بقوله : " ولكن يبدوا أنَّ أحداً لم يعن بتعليمه ـــ أي النبي محمد ـــ القراءة والكتابة، ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلها إلا سبعة عشر يقرؤن ويكتبون ، ولم يُعرَف عن محمد أنَّه كتب شيئاً بنفسه، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً له ولكن هذا لم يحل بينه وبين المجيء بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفاً قلَّما يصلُ إليه أرقى النَّاس تعليماً"(٤)، فكلام ول ديورانت واضح في إثبات أمية النبي محمد (ﷺ) ، وإن اتفق في كلامه مع التوجه الاستشراقي الذي ينسب القرآن الكريم إلى النبي محمد(ﷺ) .

كانت حقيقة عدم معرفة النبي(ﷺ) للقراءة والكتابة أمراً قد ثبت عند أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية من المعاصرين للنبي محمد ـــ لا كما يدعي باريت أنَّ النبي محمد تعلم القرآن من مصادرهم الكتابية ـــ ولذلك " تيقنوا أنَّه لم يقرأ كتب الرسل السابقين، لذلك كانوا يسألونه في مسائل يريدون أن يُعجزوه بها، ليس لها جواب إلا في كتبهم ... ولو لم يكن للنبي (ﷺ) معجزة إلا أنَّه تكلم بجوامع الكلم مع

(١) ـ سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨

(٢) ـ الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده ، د. محمود ماضي : ١١١

(٣) ـ القرآن الكريم في دراسات المستشرقين ، مشتاق بشير الغزالي : ١١٧

(٤) ـ قصة الحضارة ، ول ديورانت : ١٣ / ٢٢

كونه أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، لكفى ذلك حجة على الكفار بصدق نبوته صلّى الله عليه وسلّم."[١] ، ثمَّ لو كانت القراءة والكتابة وسيلة للتشكيك في كُتب الله وصدق رُسله ، فنبي الله موسى وعيسى كانا يقرءان ويَكتبان ، فهل يصح أن يُقال أنهما تعلما من كتبٍ وعلومٍ من سبقهم من الأمم[٢].

فضلاً عن ذلك أنَّه حتى لو كان النبي محمد (ﷺ) يُكوِّن القرآن الكريم من معارف يستقيها من (مصادرٍ مكتوبة) على فرض أنَّه كان يعرف القرآءة كما يذهب باريت ، فإن عميلة التعلم تصطدم بعقبة لا يمكن تجاوزها وهي عدم وجود نصوص عربية للتورانجيل في ذلك الوقت ، فلم تكن حينها قد وجدت بعد توراة ولا إنجيل باللغة العربية ، ووجود هذه الوثائق بلغات أجنبية جعلها حِكراً لبعض العلماء المتحدثين بأكثر من لغة الذين حفظوها بعناية ، والذين وصفهم القرآن بالبخل بما عندهم من العلم[٣]، وهو ما يذكره باريت في أحد مواضع كتابه محمد والقران، بقوله : " وقد كان لديهم كتابهم المقدس ، التوراة ، والذي لم يترجم إلى العربية ، وهكذا فقد كان يُدرس ويُتلى بلغةٍ غريبةٍ عن لغة المحيط وثقافته "[٤] ، بل ويذكر في موضع آخر إنَّ اللغة الكنسية لمسيحي العرب كانت السريانية ، فيقول : " إنَّ المسيحيين من الأعراب ما كانوا قد انتموا بعد إلى كنائس وجماعات مسيحية منظمة ، فقد كانوا تابعين لكنائس البلدان المحيطة ، يعني كنائس ومجموعات الشام وبلاد الرافدين ، أمّا اللغة الكنسية فما كانت العربية بعد ، بل السريانية "[٥] ، وهنا لابد أن نطرح سؤالاً مهماً وهو : كيف تعلم محمد(ﷺ) القرآن من توراة غير عربية ومن كنيسة مسيحية لغتها السريانية ؟ " ونحن نعلم أن هذه الأديان ليست ناشئة في مكة وإنَّما نشأت بعيداً عن الجزيرة العربية، وحقيقة كانت بلسان أعجمي.

فالمسيحية لم تكن بلسان عربي وإنَّما كان لسانها لسانًا سريانيًّا.

واليهودية لم تكن بلسان عربي وإنّما كان لسانها لسانًا عبرانيًّا.

والمجوسية كذلك لم تكن بلسان عربي وإنّما كان أعجمية وباللسان الفارسي.

---

(١) شمائل الرسول صلى الله عليه واله وسلم ، أحمد بن عبد الفتاح الزاوي ، درا القمة الإسكندرية ، (ب ت) : ٢/ ١٥٦

(٢) ينظر مناقشات وردود ، محمد فريد وجدي : ٧١

(٣) ــ ينظر مدخل إلى القرآن الكريم ، د. محمد عبد الله دراز : ١٤١

(٤) ــ محمد والقرآن ، رودي باريت : ١٦ ، وللمزيد : القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت، ص٤٣ .

(٥) القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت: ٢٠

وكذلك الصابئة لم تكن بلسان عربي وإنّما كان لسانها لسانًا آراميًّا.

وكذلك الوثنية الفكرية لم تكن باللسان العربي وإنّما كان لسانها إغريقيًّا رومانيًّا على أساس أنَّ الفلسفة اليونانية كانت لا تعتقد بعقيدة دينية وإنّما كانت تؤمن فيها تؤمن بالعقل الإنساني وفكره فحسب، فإذا ما تكلمنا عن الوثنية الفكرية فلا بد للذهن أن يتجه نحو اليونان.

أمّا الوثنية المنتشرة في العرب فإنها كانت وثنية ساذجة ليس لها مضمون فكري.

...هذه الأديان – كما عرضنا سابقاً– كانت أعجمية وفق ما قال القرآن: {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ} "[1]، فكيف لتلك الأديان الغريبة فكراً ولغة عن المجتمع العربي ، أن يسعى النبي محمد لتعلمها وتكوين رسالته منها ؟ ، وحتى لو جارينا باريت في اتهامه ، فهل من العقل أن يتعلم النبي محمد(ﷺ) القرآن من مصادر سريانية وعبرية ــ لغتا التورانجيل ـــ دون أن يكون لتلك المصادر أي أثر في مفردات القرآن ؟، وإن حاول باريت في مواضع من كتابه محمد والقران إثبات أثر كهذا [2] ، إلا إنّ محاولات كهذه أبطلها القرآن الكريم ، وأقرَّ بها العرب بكافرهم قبل مؤمنهم .

ولم يستند باريت على حجة واضحة في رَدَّ ما جاء به القرآن الكريم من بُرهانٍ يدحض دعواه ، بل إنّه ذهب إلى أبعد من إعراضه عن الحجة والبرهان إلى فَهمِ أنّ القرآن الكريم خلد تلك الاتهامات دون أن يُقيم لدعواه دليلاً ، كما في قوله : " وقد كان شديد التأكد والثقة من موضوعه ومهمته إلى حد أنَّ القرآن ذكر الاتهامات التي وجهت إليه والقائلة من جانب خصومه إن هناك رَاويةً أجنبياً يعلمه ، فخلدها بذلك في القرآن بدلاً من أن يرد عليها أو ينفيها " [3].

كيف يقال أنَّ القرآن الكريم خلد تلك الاتهامات من غير رَد كم يدعي باريت ، بل ردَّ القرآن الكريم على تلك الاتهامات الموجه للنبي محمد(ﷺ) بتعلمه من مصادر ورواة ببرهان لا يختلف فيه العقلاء ، كما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}[4] ، "هذه الآية على قصرها تناولت القضية شكلاً ومضموناً، دعوى وردّاً عليها حين قالت: {إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَر-}

(١) ــ تاريخ الفكر الديني الجاهلي ، محمد إبراهيم فيومي : ٨ ٩

(٢) ينظر محمد والقرآن ، رودي باريت : ٢٣ / ٩٥ / ٩٦ / ١٣٢ .

(٣) القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت: ٢٤٦

(٤) ـ سورة النحل ، الآية : ١٠٣

هذه هي الدعوى، أمّا الرد عليها فجاء تالياً بعدها مشاراً إليه في الآية ذاتها في قوله تعالى: {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} "[1] ، ولذلك لم يصرح القرآن الكريم " باسم من زعموا أنّه يعلمه عليه الصلاة والسلام مع أنه أدخل في ظهور كذبهم للإيذان بأنَّ مدار خطئهم ليس بنسبته صلى الله عليه وسلم إلى التعلم من شخص معين ، بل من البشر كائناً من كان مع كونه عليه الصلاة والسلام مَعدناً لعلوم الأولين والآخرين"[2] ، ولو أراد النبي محمد(ﷺ) أن يُخلد تلك الاتهامات في القرآن كما يزعم باريت ، لخلدها بالاسم ، بل حتى القرآن الكريم حين ردَّ على اتهامات المشركين لم يذكر ما سردوه من أسماء ، متجاهلاً ذكر تلك الأسماء الوهمية التي لم تستند لأي دليل ، ولو فَندَ القرآن الكريم تلك الفرية بأسمائها لتكررت تلك الاتهامات بأسماء أُخر ، لكن القرآن الكريم أقام الدليل على بطلان دعواهم أيّاً كان ذاك المعلم الأعجمي ، فلم يكتفي بنفي تلك التهم بل خَلدَ الرد القائم على الدليل العقلي الداحض لهكذا اتهام .

المطلب الثالث : دعوى إنَّ مصدر القرآن من تأليف النبي محمد(ﷺ) .

في هذا الجانب يذهب باريت (Paret) إلى دعوى أنّ القرآن الكريم كان مصدره النبي محمداً(ﷺ) نفسه معبراً عن ذلك : إنَّ القرآن الكريم كان يُستنطق بالرغبة ، وأنه في النهاية ناجم عن قرارٍ مُسبق من النبي محمد(ﷺ) ، كما بقوله : " ويمكن التعبير عن ذلك بشكل موجز أن الوحي في البداية كان يأتي على نحو مفاجئٍ ومتفجر ، في حين تطور فيما بعد إلى أن يصبح أمراً معتاداً ، بحيث إنّ النبي محمداً وقبل القرارات المهمة كان يستطيع أنّ يضع في اعتباره أنّ إرشاداً إلهياً موحىً سوف يتنزل عليه ، < ويجيبُ على أسئلته وتطلُّعاته > . بيد أنّ خطراً من نوعٍ معينٍ كان كامناً في هذا التطور ، والمعنيُّ أنّ الوحي يمكن أن يُستجلب أو يُستنطق بالرغبة ؛ بحيث تكون النتيجة النهائيةُ ناجمةً عن قرارٍ مسبقٍ واعٍ أو غير واع ، ويتلاءمُ مع الميول الشخصية ، وهذا الأمر الأقربُ إلى تصوره الرواية الصحيحة غالبا والواردة على لسان عائشة الزوجة الشابة للنبي ، وهي تتصلُ بالامتيازات التي تمتّع بها النبيُّ فيما يتعلق بالزواج ، فقد قالت عائشة تعليقاً على ذلك ما معناه : ما أسرعَ ربَّك إلى تلبية رغباتك ! و المؤكدُ أنَّ النبيِّ نفسه أحسَّ هذا الخطر "[3].

---

(١) ــ تاريخ الفكر الديني الجاهلي ، محمد إبراهيم فيومي : ٧

(٢) ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الالوسي المتوفى (١٢٧٠هـ) ، تحقيق علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ : ٧ / ٤٦٩

(٣) ـ القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت: ١٠٥ ــ ١٠٦

وأرى قبل أنّ أستعرض مقولة باريت حول دعوى إنَّ القرآن الكريم كان نتيجة لقراراتٍ مسبقة ، لا بد أن أنبه على قضية تطور الوحي التي يستعملها باريت كمدخل في كثير من مواضع كتاباته للوصل إلى غايته بالقول : إن تطور الوحي هو في حقيقته تطور للشخصية النبوية ، ليصل إلى النتيجة المطلوبة في أن القرآن الكريم من تأليف النبي محمد(ﷺ) .

إن قضية تطور الوحي الإلهي لدى النبي محمد(ﷺ) غير مُسلّم بها من الناحية التاريخية ، فقد كانت حالة تلقي النبي محمد(ﷺ) للوحي القرآني في أول الأمر كما هي في المراحل المتأخرة للرسالة من : كمال وعي ووفرة نشاط ، ولذلك لا مجال قط لاحتمال وسائل تحضيرية يستجمع بها شتات ذهنه، ولا نَوبات عصبية تلمُ به ، ولا أعراض مرضية تعتريه[1]، فلا علاقة بتطور الشخصية المحمدية بالوحي القرآني.

ولذلك فإنَّ المتتبع للنصوص القرآنية يجد أنها تُشير إلى أنّ القرآن الكريم من عند الله تعالى وليس من عند النبي محمد(ﷺ) ، فلم يقل النبي (ﷺ) في يوم من الأيام أنّ القرآن الكريم من عنده ، وإنّما أخبر بأنّه كتاب من الله تعالى أنزله إليه بواسطة جبريل : كما ذكر ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى : { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ }[2] ، فجبريل هو الذي تلقى الوحي عن ربه فكان واسطة بين الله وبين النبي (ﷺ)، ونجد أنّ الآيات القرآنية تصرح بأنّه لا علاقة للنبي محمد (ﷺ) بإنزال القرآن الكريم ، بل هو عبد مأمور تخاطبه الذات الإلهية ، قال تعالى : { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي }[3] ، أي إذا لم تأتهم أيها الرسول بآية قرآنية طلبوها منك ، وتراخى الوحي بإنزالها ، قالوا : لولا ألفتها من تلقاء نفسك ، قل : إنّما اتبع ما يوحى إلي من ربي من غير أنّ يكون لي دخل في ذلك أصلاً ، كما قال سبحانه : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[4] ، والذي يُطالع الآيات الواردة في هذا المجال وهي كثيرة يخرج منها بأمرين هامين :

---

(١) ـ ينظر مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، الطبعة الرابعة والعشرون ٢٠٠٠م : ٤٠

(٢) سورة التكوير ، الآية : ١٩ ـ ٢١

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٣

(٤) سورة يونس ، الآية : ١٥ ـ ١٦

١ – دلالة ضمائر المتكلم في الآيات على أن القرآن من عند الله وليس من عند محمد (ﷺ) لأن الأفعال المسندة إلى الله لا يمكن ولا يعقل أنّ تصدر إلا من الله سبحانه وتعالى في أي موطن من مواطن الإسناد...

٢ – تبرؤ الرسول (ﷺ) من نسبة أي شيء لنفسه من كتاب الله ، وأنه كان يرجع إلى ربه في كل أية منه[١].

وأمّا مَا يقرر إليه باريت(Paret) في أنَّ النبي محمد(ﷺ) كان يؤلف القرآن من نفسه ، وأنَّه كان نتيجة لقرارات مسبقة من النبي محمد(ﷺ) ، كما بقوله : " إنّ النبي محمداً وقبل القرارات المهمة كان يستطيع أن يضع في اعتباره أنّ إرشاداً إلهياً موحىً سوف يتنزل عليه ، < ويجيبُ على أسئلته وتطلُّعاته > . بيد أنّ خطراً من نوعٍ معينٍ كان كامناً في هذا التطور . والمعنيُّ أنّ الوحي يمكن أن يُستجلب أو يُستنطق بالرغبة ؛ بحيث تكون النتيجة النهائيةُ ناجمةً عن قرارٍ مسبقٍ واعٍ أو غير واع ، ويتلاءمُ مع الميول الشخصية "[٢] . فيذكر باريت إنّ النبي محمد(ﷺ) كان باستطاعته أن يَستجلب الوحي القرآني قبل القرارات المهمة ، لكن هذه المقدمة التي يتوسل بها غير صائبة ، ففي كثير من المفاصل المهمة في تاريخ السيرة النبوية تأخر نزول الوحي القرآني ، حين كان النبي محمد(ﷺ) في أشد الحاجة إليه ، وَهو مَا يذكره مالك بن نبي بقوله : " ولقد يتأخر الوحي ويبطئ، حتى عندما تلح إحدى الحالات العاجلة: ولتكن حالة اتخاذ قرار، أو سن تشريع لمناسبة معروضة على النبي ...

ولنذكر إحدى هذه الحالات : ففي بدء الرسالة، وعلى وجه التحديد بعد الوحي الأول الذي رويناه، انتظر النبي زمناً طويلاً، أكثر من عامين، قبل أن يرى للمرة الثانية زائره الغريب ويسمع صوته ، لقد يئس منه، وأخذ الشك يستولي مرة أخرى على نفسه التواقة إلى اليقين، فهو يعتقد أنّه إمّا أن يكون قد خدع في جوارحه، وأما أن القدرة قد تخلت عنه، تلك التي اعتقد حيناً أنها هي التي تقوده "[٣] .

فدعوى باريت في أنّ الوحي القرآني كان مَنبعهُ الميول الشخصي والرغبة النبوية ، فهي دعوى لا تتسم بالدقة أيضاً ، ففي القرآن الكريم كثيراً من الآيات لا يمكن أن تنسب إلى النبي محمد(ﷺ) ـــــ على فرض أن القرآن الكريم من تأليف النبي محمد(ﷺ) كما يزعم باريت ـــــ فقد جاء فيها مَا لم يكن يرغب فيه ويميل إليه قبل نزولها ، ولذلك فقد احتوت تلك الآيات عتاباً للنبي محمد(ﷺ) على آراءٍ وأفعال .

---

(١) ينظر المستشرقون والقرآن الكريم ، د. محمد أمين حسين : ٢١٧ ـ ٢١٨

(٢) القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت: ١٠٥

(٣) الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي : ١٢٦

ومن تلك الآيات : " سورة كاملة عنوانها (عبس) من آياتها {عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ... }[١] ، {عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ...}[٢] ، {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ... }[٣] ، {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[٤] ، {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ...}[٥]، {لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [٦] ، {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا }[٧] ، { وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ }[٨] ، {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[٩] ...

هذا العتب وغيره كثير فهل يُعقل أنّ يؤلف محمد(ﷺ) الكتاب ثمَّ يوجه العتب إلى نفسه ؟ وحوادث عديدة قام بها محمد (ﷺ) آنياً مع أصحابه ثم تبدلت في نص القرآن فلم يجد في نفسه غضاضة ، فلو كان القرآن من عنده لما قام بها ودونها ، لغيرها وعمل الأنسب دون تسجيل للحادثة "[١٠] .

وَباريت (Paret) يعلمُ هذه الحقائق فقد فسر القرآن وَترجمهُ ، فضلاً عن ذلك أنَّه يعلم مقدار الطاعة التي كان يدين بها الصحابة للنبي محمد(ﷺ) ، فلماذا يسعى النبي محمد(ﷺ) لتأليف القرآن كي يحقق رغبة معينة ؟ ، ثمَّ إضافة إلى ذلك أن " صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام

---

(١) ـ سورة عبس ، الآية : ١ ــ ١٠

(٢) ـ سورة التوبة ، الآية : ٤٣

(٣) ـ سورة آل عمران ، الآية :١٦١

(٤) ـ سورة الأنفال ، الآية : ٦٧

(٥) ـ سورة التوبة ، الآية : ١١٣

(٦) ـ سورة الأنفال ، الآية : ٦٧

(٧) ـ سورة الكهف ، الآية : ٢٣ ـ ٢٤

(٨) ـ سورة الأحزاب ، الآية :٣٧

(٩) ـ سورة التحريم ، الآية : ١

(١٠) ــ الإسلام في قفص الاتهام ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر دمشق ، الطبعة الخامسة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م : ٢٧ ــ ٢٨

المنسوب إلى الله تعالى؛ فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئاً، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدة فيها شيئاً، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتهما في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله، فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوَهِمُ "[1] ، ولذلك يعد كلام النبي محمد(ﷺ) وكلام الله تعالى في الطاعة سواء ، لكننا إذا افترضنا أن النبي محمد(ﷺ) سعى في تأليفه للقرآن الكريم تحقيق القدسية الإلهية التي لا تتوفر في بني البشر كما يشير باريت بقوله : " وقبل القرارات المهمة كان يستطيع أن يضع في اعتباره أنّ إرشاداً إلهياً موحىً سوف يتنزل عليه "[2] ، فهنا وبكل بساطة نسأل باريت " لماذا يؤلف محمد (ﷺ) القرآن ثم ينسبه إلى غيره ، فالعظمة تكون أقوى وأوضح وأسمى فيما لو جاء بعمل يعجز عنه العالم كله ، ولكان بهذا العمل فوق طاقة البشرية فيرفع إلى مرتبة أسمى من مرتبة البشر ، فأي مصلحة أو غاية لمحمد (ﷺ) في أن يؤلف القرآن وهو عمل جبار معجز وينسبه لغيره ؟ "[3] ، ولو افترضنا أنَّ القرآن الكريم من تأليف النبي محمد(ﷺ) ، فلماذا لم يستطع العرب أن يأتوا بمثله، مع حرصهم الشديد على معارضته، ولذلك كان النبي محمد (ﷺ) يتحداهم دائماً ، ومع هذا لم يطق أحد منهم معارضته، ولا أن يقال: إنّ النبي محمد بلغ من العبقرية البشرية مبلغاً، إذ لم يستطع أحد أن يأتي بمثل ما قال ؛ علماً أنّه يمكن للمخالفين أن يجتمعوا فيألفوا قرآناً بشرياً ، ذلك لأنّ الجماعة تُبدع وتبتكر أكثر من الإنسان الواحد، فلو اجتمع مائة شاعر مثلاً لتأليف قصيدة؛ لكانت في جمالها وقوتها وسبكها أفضل بمراحل من شاعر واحد ألف قصيدة، مهما بلغ هذا الشاعر من البلاغة والبيان ، فإذا كان آحاد المشركين لم يستطيعوا معارضة القرآن؛ فلماذا لم يجتمعوا لمعارضته؟ ولكن هيهات؛ فإنه لو اجتمعت قريش والعرب وأهل الأرض قاطبة، بل ومعهم الجن ما كان لهم أن يأتوا بمثل

(١) ــ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن ، د. محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، طبعة ١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م : ٥٢

(٢) ــ محمد والقرآن ، رودي باريت : ١٠٥ ، وللمزيد ينظر ، القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت، ص٨٧ .

(٣) ــ الإسلام في قفص الاتهام ، شوقي أبو خليل : ٢٦

آية منه { قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[١] .[٢]

بالإضافة إلى حقيقة أخرى لا يمكن لباريت أن ينكرها وهي : اختلاف الأسلوب القرآني عن أسلوب كلام النبي محمد (ﷺ) " فلو رجعنا إلى كتب الأحاديث التي جمعت أقوال محمد(ﷺ) ، وقارنها بالقرآن ، لرأينا الفرق الواضح والتغاير الظاهر في كل شيء ، في أسلوب التعبير ، وفي الموضوعات ، فحديث محمد (ﷺ) تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابة في صورها ومعناها المألوف لدى العرب كافة ، بخلاف أسلوب القرآن الذي لا يُعرف له شبيه في أساليب العرب ...

يستشعر القارئ في فطرته عند قراءة كتب الأحاديث شخصية بشرية وذاتية تعتريها الخشية والمهابة والضعف أمام الله تعالى ، بخلاف القرآن الذي يتراءى للقارئ من خلال آياته ذاتية جبارة عادلة حكيمة خالقة بارئة مصورة ، رحيمة لا تضعف حتى في مواطن الرحمة ، فلو كان القرآن من كلام محمد(ﷺ) لكان أسلوبه وأسلوب الأحاديث سواء ، ومن المُسلَّم به لدى أهل البصر الأدبي والباع الطويل في اللغة ، أنّه من المتعذر على الشخص الواحد أنّ يكون له في بيانه أسلوبان يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً جذرياً "[٣] ، لذلك لا يمكن أن يكون لإنسان عدة أساليب يختلف أحدهما عن الأخر اختلافاً تاماً ، ويستطيع أن يداوم على نسق أدائه في كل أسلوب من أساليبه دون أن يُلاحظ أي تداخل في تلك الأساليب المختلفة ، وهذا ما ذكره الشعراوي بقوله : "هاتوا لنا في عالم الأنس إنسان له موهبة أن يقول ، وما دامت له موهبة أن يقول فسجلوا له مميزات أسلوبه ، ثمَّ أسألوه أن يغير الأسلوب إلى أسلوب أخر ، ثم سجلوا له الأسلوب الأخر، ثمَّ قولوا له نريد أسلوباً ثالثاً ، فأنه لا يستطيع أنّ يتبرأ من أسلوبه الأول، وذلك لأن الأسلوب هو: الطريقة اللازمة للشخص في أداء المعاني ، وما دامت له طريقة في أداء المعاني ، فإن الأداء سيأخذ تشخصاً لا يمكن

(١) ـ سورة الإسراء ، الآية : ٨٨

(٢) ـ ينظر دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها ، عبد المحسن بن زبن المطيري ، دار البشائر الإسلامية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م : ١٨٦

(٣) ـ الإسلام في قفص الاتهام ، شوقي أبو خليل : ٢٤ ــ ٢٥

أن يبرئ صاحبه نفسه منه ، فإذا ما جئنا بأسلوب قرآني ، وأسلوب حديث قدسي ، وأسلوب حديث نبوي ، فسنجد أساليب ثلاثة لا يمتزج فيها أسلوب بأسلوب ، بل لكل أسلوب خواصه ومميزاته وطبائعه "[١].

وأمّا قول باريت (Paret) : " وهذا الأمر الأقربُ إلى تصوره الرواية الصحيحة غالبا والواردة على لسان عائشة الزوجة الشابة للنبي . وهي تتصلُ بالامتيازات التي تمتّع بها النبيُّ فيما يتعلق بالزواج ، فقد قالت عائشة تعليقاً على ذلك ما معناه : ما أسرعَ ربَّك إلى تلبية رغباتك ! و المؤكدُ أنَّ النبيِّ نفسه أحسَّ هذا الخطر "[٢] ، فباريت يشير إلى حديث أخرجه البخاري الذي نصه هو : " حدثنا زكرياءُ بن يحيى: حدثنا أبو أسامة قال: هشام حدثنا عن أبيه عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله (ﷺ) وأقول أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى { تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ }[٣] ، قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك"[٤].

فموضوع الحديث يشير إلى قصة أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) مع اللاتي وهبن أنفسهنَّ للنبي محمد (ﷺ) ، فليس لموضع الحديث علاقة بقضية الوحي القرآني.

أمّا الدافع لهذه المقولة فهي الغيرة المكنونة في النفس البشرية ، وليس الدافع كما يدعي باريت : إنَّ مقولة السيدة عائشة (رضي الله عنها) تهدف إلى التشكيك بالوحي القرآني وبأنه نتيجةً لرغبات النبي محمد(ﷺ) ، ولذلك يذكر القرطبي[٥] ما نصه : " وقول عائشة : (ما أرى ربَّك إلا يسارع في هواك) قول أبرزته الغَيْرَةُ والدَّلالُ ، وهذا من نوع قولها : (ما أهجر إلا اسمك) ، و(لا أحمد إلا الله)... ـــــ ودليل

---

(١) ـ شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها ، محمد متولي الشعراوي ، جمع وإعداد أحمد عبد القادر عطا ، مكتبة التراث الإسلامي القاهرة ، (ب ت) : ٣٦

(٢) ـ محمد والقرآن ، رودي باريت : ١٠٥ ــ ١٠٦ ، وينظر : القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت

(٣) ـ سورة الأحزاب ، الآية : ٥١

(٤) صحيح البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة الجعفي البخاري ، دار صادر بيروت ، (ب ت) : ٣/ ٨٦٥ .

(٥) ـ القرطبي (٥٧٨ ــ ٦٥٦هـ): أحمد بن عمر بن إبراهيم ، أبو العباس الأنصاري القرطبي : فقيه مالكي محدث ، يعرف بابن المزين ، كان مولده بقرطبة ، وعمل مدرساً بالإسكندرية وتوفي بها ، من كتبه : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، شرح به كتاباً من تصنيفه في اختصار مسلم . ينظر الإعلام ، لخير الدين الزركلي : ١/ ١٨٦ . وهو غير القرطبي صاحب التفسير المشهور الجامع لأحكام القرآن المتوفى ٦٧١هـ .

غيرتها هو ـــ قولها : (أما تستحيي المرأة تهب نفسها ؟!) تقبيح منها على من فعلت ذلك ، وتنفير أوجبه غيرتها ، وإلاَّ فقد علمت أن الله أباح هذا للنبي(ﷺ) خاصَّة ، وأن النساء كلّهن لو مَلَّكْنَ رقَّهُنَّ ورِقَابهنَّ للنبي (ﷺ) لكُنَّ معذورات في ذلك ، ومشكورات عليه لعظيم بركته ، ولشرف منزلة القرب منه ، وعلى الجملة فإذا حُقِّقَ النظرُ في أحوال أزواجه ؛ عُلِمَ : أنَّه لم يحصل أحدٌ في العالم على مثل ما حصلنَّ عليه ، ويكفيك من ذلك مخالطة اللحوم ، والدماء ، ومشابكة الأعضاء ، والأجزاء ، وناهيك بها مراتب فاخرة ، لا جرم هنَّ أزواجه المخصوصات به في الدنيا والآخرة "[1] ، ولذلك كان أمرُ الغيرة في النساء من سجاياهنّ وطباعهنّ ، فالغيرة " للنّساء مسموحٌ لهنّ فيها وغير مُنكر من أخلاقهنّ، ولا مُعاقب عليها ولا على مثلها لصبر النبي (ﷺ)، لسماع مثل هذا من قولها، ألا ترى قولها له: أرى ربك يسارع في هواك، ولم يرد ذلك عليها ولا زجرها، وعذرها لما جعل الله فى فطرتها من شدة الغيرة "[2].

وأمّا مفردات المقولة ومعانيها : (ما أرى ربك إلا يسارع في هواك) :-

فالمسارعة : تعني التعجيل ، وهي هنا مُستعارة لتوخي المرغوب والحرص على تحصيله ، أي يعطيك ما تحبه لأن الراغب في إرضاء شخص يكون متسارعاً في إعطائهِ مرغوبه ، ويقال : فلان يجري في حظوظك [3].

و لفظة الهوى المعروف في استعماله عند الإطلاق : " أنَّه الميلُ إلى خلاف الحقِّ، كما في قوله – عزَّ وجل –: {وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [4] ، وقال: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [5] ، وقد يُطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقاً، فيدخل فيه الميل إلى الحقِّ وغيره، وربما

(١) المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، أبي العباس احمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المتوفى ٦٥٦ هـ ، تحقيق محي الدين ديب ، يوسف علي بدوي ، أحمد محمد السيد ، محمود إبراهيم زابل ، دار ابن كثير دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـــ ١٩٩٦م : ٤/ ٢١١ ـ ٢١٢

(٢) ـ شرح صحيح البخاري لابن بطال ، ابن بطال أبو الحسين علي بن خلف بن عبد الملك المتوفى ٤٤٩هـ ، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م : ٧/ ٣٣٣

(٣) ـــ ينظر التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي المتوفى (١٣٩٣هـ) ، دار سحنون للنشر ـ تونس ١٩٩٧م : ١٨ / ٧٥

(٤) سورة ص ، الآية : ٢٦

(٥) سورة النازعات ، الآية : ٤٠ ـــ ٤١

استُعمِل بمعنى محبة الحقِّ خاصة والانقياد إليه"[١] ، ومقولة السيدة عائشة (رضي الله عنها) داخلة في هذا المعنى ، وهذا ما ذكره ابن حجر[٢] بقوله : " أي ما أرى الله إلا مُوجداً لما تريد بلا تأخير ، مُنزلاً لما تحب وتختار "[٣] ، ويذكر الطبرسي[٤] زيادة في المتن ، يتبين منها أن لفظ الهوى تعني الطاعة ، فيقول : " فقالت عائشة : ما أرى الله تعالى إلا يسارع في هواك ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : (وإنك إن أطعت الله سارع في هواك)"[٥]، و يذكر القرطبي بإنَّ إضافة الهوى إلى النبي محمد (ﷺ) : "مباعدٌ لتعظيمه ، وتوقيره ؛ الذي أمرنا أمرنا الله تعالى به ، فإن النبي (ﷺ) مُنَزَّهٌ عن الهوى بقوله تعالى : { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى }[٦] ، وهو ممن نهى النفس عن الهوى ، ولو جعلت مكان (هواك) (مرضاتك) لكان أشبه ، وأولى ، لكن أبعد هذا في حقِّها عن نوع الذنوب : أنَّ ما يفعل المحبوب محبوب"[٧].

فأبعد ما وصل إليه العلماء في توجيه مقولة السيدة عائشة (رضي الله عنها) أنّه كان من الأليق بها استعمال لفظ آخر ، وحتى في ذلك إنّها لم تؤاخذ على ما قالت؛ لدافع الغيرة على رسول الله (ﷺ) ، وأمّا النتيجة التي توصل إليها باريت في أنّ مقولة السيدة عائشة (رضي الله عنها) تَصبُ في سياق أنّ وحي القرآن نتيجة لرغبات وقرارات مُسبقة للنبي محمد (ﷺ) ، وهي نتيجة لا تتفق مع مقدمات الموضوع

---

(١) ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الشهير بابن رجب الحنبلي ، تحقيق د. ماهر ياسين الفحل ، دار طيبة دمشق يوريا ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٩م : ٧٤٤

(٢) ابن حجر العسقلاني : هو أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني (٧٧٣ ــ ٨٥٢هـ) : من أئمة العلم والتاريخ ، مولده بعسقلان ووفاته بالقاهرة . من كتبه : فتح الباري . المشترك الإنساني ، راغب السرجاني : ٧٥٣ الهامش .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٣هـ ، رقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفيحاء دمشق ، (ب ـ ت) : ٨ / ٦٦٨

(٤) الطبرسي المتوفى (٥٤٨هـ) : الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي ، أبو علي : مفسر ومحقق لغوي ، من علماء الشيعة الأمامية ، نسبته إلى طبرستان له : مجمع البيان في تفسير القرآن . ينظر الإعلام ، للزركلي : ٥/ ١٤٨

(٥) ــ مجمع البيان في تفسير القرآن ، أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، تخريج إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م : ٨ / ١٣٠

(٦) سورة النجم ، الآية : ٣

(٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي : ٤/ ٢١١

ودوافعه ، فلم يكن موضوع الحديث عن الوحي القرآني ، ولم يكن مقصده التشكيك بمصدر الوحي الإلهي، كما يسعى باريت للوصول لتلك الغاية .

المبحث الثاني
الشخصية المحمدية والوحي القرآني

يُحاول رودي باريت (Rudi Paret) في كتاباته أن يؤسِّس لعلاقة بَين القرآن الكريم وَبين الشخصية المحمدية ، مُتوسلاً لذلك بدعوى مصدرية القرآن الكريم من النبي محمد (ﷺ) ، والارتباط الوثيق بين الرسول (ﷺ) ورسالته ، وعلى هذين الأساسين انطلق باريت للوصول إلى غايته لسلب الوحي الإلهي عن القرآن الكريم ، محاولاً إثبات أنَّ القرآن الكريم نتيجة لتلك الشخصية بانفعالاتها النفسية من حزن وغضب وفرح وغير ذلك من الشعور الإنساني .

فعلاقة النبي محمد (ﷺ) بالقرآن هي : علاقة الرسول بالوحي الإلهي ، لا علاقة المؤلِّف بكتاباته كما يسعى باريت ، ولذلك فإنَّ ما عرضهُ القرآن الكريم من محطات في حياة النبي محمد(ﷺ) كان في حقيقتها عرضاً للمسائل التي تتصل بشؤون المسلمين ، ومن هنا فإننا نجد كثيراً من القضايا الشخصية الخاصة بشأن الرسول (ﷺ) مع أهميتها لا يتحدث عنها القرآن ، ففي العهد المكي تَمرُّ بالنبي محمد(ﷺ) أحداثٌ جسام ، يموت عمه أبو طالب الذي كان يناصره ، ويذبُ عنه ، ويقيه أذى المشركين ، وتموت زوجته خديجة وهي التي كانت تواسيه ، ومع ذلك وجدنا القرآن الكريم لا يتحدث عن شيء من ذلك كله ، وفي العهد المدني يموت ابنه إبراهيم ، ولم يذكر القرآن هذه القضية مواسياً للرسول الكريم(ﷺ) ، ولو كان القرآن كتاباً شخصياً لتحدث عن هذه القضية ، وحتى ما ذكره من حياة النبي(ﷺ) الخاصة ، كزواجه من السيدة زينب بنت جحش ، كان لصلة هذه الحادثة بالتشريع الإسلامي ومساسها بالجماعة المسلمة[1].

لذلك فإنَّ القرآن الكريم حين يعرض الشخصية المحمدية فهو يعرض شخصية الهداية للوحي الإلهي ، والتي تمثل القدوة في الهداية الإلهية ، فالنبوة ــ ولا خفاء ــ شرف عظيم تدين له الرؤوس ، لكن النبوة وحدها بغير شخصية تناسبها لم تكن كفيلة لذات النبي بهذه الهيبة وهذا الحب والإعجاب جيلاً كاملاً حافلاً بالعظائم والتجارب مزدحماً بأطوار النصر والهزيمة ، وعوارض الرجاء والقنوط ، فلو لم يكن النبي محمد(ﷺ) يملك من صفات القدرة والشجاعة والبلاغة والتدبير والمهابة وحسن الأثر في النفوس والعقول

(١) ـ ينظر قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ، د. فضل حسن عباس ، دار البشير ، (ب ــ ت) :١٦٦

أوفى من نصيب أصحابه وأتباعه لَما دانت له هذه الأطواد الشوامخ بالتطامن والاطمئنان ، وَلَما انقضى الزمن على هذه الصحبة دون أن تظهر فوارق الصفات الشخصية إلى جانب فوارق النبوة وفوارق الدعوة وما تقتضيه من الإصغاء بوحي الإيمان دون وحي العاطفة والبديهة تلك عظمة الذات المحمدية : عظمة الشخصية التي استحقت من الله تعالى أن يجعل فيها رسالته كما جاء في الكتاب المبين ، ولن يستطيع مفكرو الغرب أن يخلصوا من مألوفات التاريخ ومناوراته التقليدية إلا أن يدركوا كيف جاوزت هذه العظمة كل مألوف ، وكيف استطاعت بوحيها الإلهي مع عظمتها الإنسانية أن تكسب تلك المكانة العليا بين أصحابٍ أقطابْ ، كلٌّ منهم يَضيق به أفق الإكبار والإعجاب[١] .

بل عظمة الشخصية المحمدية كان لها الأثر الكبير حتى في نفوسِ كفار العرب فوقفوا أمامها حائرين ، كما عجزوا أمام القرآن الكريم ، ولذلك وجَّه كفار العرب كما يذكر محمد دروزة[٢]: " إلى صاحب الرسالة نفسه(ﷺ) وفي حياته كل تهمة ، ورموه بكل فرية ، ونسبوا إليه كل نسبة على أوسع مدى مما يوجهه هؤلاء ويرمونه به وينسبونه إليه ، كالكذب والافتراء والاستعانة بالغير والأخذ عمن سبق والتعلم والجنون والسحر والشعر والكهانة ، مِمّا حكاه القرآن ، وأن يصمد لهم صموداً باهراً ، وأن يردَّ عليهم بلسان الوحي القرآني كل ما يتهمونه به وينسبونه إليه رَداً قوياً مفحماً ولاذعاً ، وأن يستمر في دعوته ثابت الجنان ، قوي الإيمان ، إلى أن صارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي الدنيا ، والى أن اندمج فيها أكثرية العرب الساحقة بما فيهم أولئك الذين كذبوا وَمَاروا وجحدوا ونسبوا إليه ما نسبوا "[٣].

---

(١) ـ ينظر ما يقال عن الإسلام ، عباس محمود العقاد ، مطبعة المدني القاهرة ، (ب ت) : ٢٢١ ــ ٢٢٣

(٢) ـ محمد عزة بن عبد الهادي دروزة (١٨٨٨ ــ ١٩٨٤م) : مفكر وكاتب ومناضل قومي عربي ولد في فلسطين في مدينة نابلس وتوفي في دمشق ، إضافة إلى نضاله السياسي، كان أديباً ومؤرخاً وصحفياً ومترجماً ومفسراً للقرآن الكريم ، وهو أحد مؤسسي الفكر القومي العربي ، ومن أبرز ما كتب : كتاب القومية العربية الذي يعد من أهم ما كتب عن القومية العربية ، وكتاب التفسير الحديث إذ فسر فيه القرآن الكريم على حسب ترتيب النزول ، وكتاب اليهود في القرآن الكريم ، وغيرها من الكتب . ينظر التفسير الحديث للأستاذ عزة دروزة دراسة وتحليل ، رسالة ماجستير تقدم بها: عبد الحكيم محمد الأنيس ، إلى كلية العلوم الإسلامية في جامعة بغداد ، عام ١٤١٣ هـ ـ ١٩٠٣م : ٩ ـ ٣٣

(٣) سيرة الرسول صورة مقتبسة من القرآن الكريم ، محمد عزة دروزة ، منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت ، (ب ت) : ١/ ٤٧

المطلب الأول : دعوى إنّ القرآن الكريم إنعكاساً لنفسية النبي(ﷺ)

يؤكد باريت (Paret) في أكثر من موضع في كتابه على قضية أثر البعد النفسي للشخصية المحمدية على الوحي القرآني ، فيذكر أنَّه حتى دعوى الاقتباس من الديانات الأخرى كان بسبب الأثر النفسي ، كقوله : " إنّ أخذ مواد مسيحية ويهودية واستيعابها شَكلَ ما يُعتبر مسألة نفسية، فحتى الوثنيين المكيين لاحظوا ذلك وأخذوه عليه "[١] ، مدعياً أن التصورات والعبادات اليهودية والمسيحية قد وافقت ما لدى النبي محمد (ﷺ) من نفسية قلقة ومتطلعة ؟ كما بقوله :" ولقد وصلت إلى سمعه ووعيه أمور جديدة كان يقول بها اليهود ، وأكثر منهم المسيحيون وقد بلغته تلك الأفكار والتصورات بطرائق غير مباشرة ، ووصلت إلى مكة ، ووافق ذلك لديه ما كانت نفسيته الباحثة والقلقة والمتطلعة قد دفعته باتجاهه ، فشعائر الصلوات التي كان يؤديها أولئك الورعون المتعبدون أثرت فيه تاثيرياً بالغاً ، وأحدث ذلك كله في أعماقه أثراً تغييرياً وتحوُّلاً بالغاً ... لقد شعر أنَّه مبعوث ومكلف بنقل هذه الحقيقة الإلهية لبني قومه ، لكي يحملهم على الطريق المستقيم ، كما هداه الله هو نفسه لذلك (سورة ٩٣:٧)[٢] ، ويمكن لنا الذهاب إلى أنّ هذا الوعي بالمهمة والتكليف ، انفجر لديه مرة واحدة مُحققاً تجربة الرسالة ، ويكون علينا أنّ نحاولَ الإمساك بذلك من خلال المرويات المحلية وشواهد القرآن أو الاكتفاء على الأقل بالبعد النفسي لتجربة الرسالة والتكليف "[٣] ، فباريت يحاول أن يؤكد أثر البعد النفسي للنبي محمد (ﷺ) على الوحي القرآني وآياته ، ومن ذلك إشارته بأنّ سورة الضحى ليست إلا تعبيراً عن الحالة النفسية السيئة للنبي محمد (ﷺ)، كما يدعي باريت بقوله :" ففي تلك السورة (سورة الضحى) يُذكر النبي ، الذي يبدو أنَّه كان في حالة نفسية سيئة "[٤] ، وكذلك يذكر أن الآيات القرآنية التي نزلت في حق اليهود ، كانت تعبيراً عن خيبة الأمل التي حصلت لدى النبي محمد(ﷺ)، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر والضلال ، فيقول : "وعندما لاحظ النبي في النهاية ، أنّ كلَّ أساليب التقاربُ والمُحاسنة ما أفادت شيئاً استولى عليه إحساسٌ قويٌ بخيبة الأمل ، بيد أنّه ظلَّ متأكداً من

---

(١) ـ محمد والقرآن ، رودي باريت : ١٠٢

(٢) : { فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ } : سورة الأعراف ، الآية : ٩٣

(٣) ـ القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت:٧٣ ــ ٧٤

(٤) ـ المصدر السابق : ٥٧

رسالته... وبسبب خيبة الأمل تلك ، وأنّ اليهود ما كان من الممكن كسبُهُم إلى جانب الدعوة الجديدة ، وردت في القرآن ملاحظاتٌ لاذعةٌ بشأن إصرارهم على الجهل وَضَالةِ قِيميهمْ الأخلاقية "[1] ، ذاكراً أنّ ما يُسميها آيات الطمع والجشع ليست إلا شواهداً على انطباعات النبي محمد(ﷺ) لحياته الأولى ، كما بقوله : " أنَّه ليست هناك غير آيات محدودة العدد ، والتي جاء الحديث فيها عن الطمع والجشع وقسوة القلب ، لدى معاصري النبي ، وهذه الآيات يمكن اتخاذُها شواهد على انطباعات النبي في حقبة حياته الأولى "[2].

يحاول باريت في المقولات السابقة وغيرها التأكيد على قضية توظيف العلاقة الرابطة بين البعد النفسي للشخصية المحمدية التي تنزَّل عليها الوحي الإلهي وبين القرآن الكريم ، موظفاً المواقف والانفعالات النفسية للنبي محمد(ﷺ) التي تعرض لها القرآن للوصول إلى غايته بسلب الوحي الإلهي عن القرآن ، ولذا فإن الآيات القرآنية ليست إلا تعبيراً عن تلك الانفعالات والتأثيرات النفسية للنبي محمد (ﷺ) .

ويمكن عدَّ آراء باريت داخلة ضمن الدراسات التي تناولت العلاقة بين التأثير النفسي وبين القرآن الكريم ، والتي على جانبين ، الأول : ما صَدر عن علماء المسلمين من دراسات تثبت حقائق تأثير القرآن الكريم بالنفس الإنسانية مؤمنة كانت أم كافرة ، وأما الجانب الثاني : وهي الدراسات الصادرة عن أعداء الإسلام التي تحاول أن تثبت دعوى أنّ القرآن الكريم كان نتاجاً لانفعالات نفسية وتغيُّرات شخصية للنبي محمد(ﷺ) ، فعلماء الإسلام حينما تعاملوا مع قضية التأثير النفسي للنص القرآني ، لم ينظروا لمصدر القرآن الكريم لإيمانهم بأنَّه من عند الله تعالى ، فاقتصروا في دراساتهم على النص القرآني وأثره في النفس الإنسانية ، في حين عندما تعامل المُستشرقون مع النص القرآني كان بحثهم في أول الأمر عن مصدر النص القرآني ، وهو في غالب الآمر عندهم من النبي محمد(ﷺ) ، أما الأثر النفسي للنص القرآني فكان بمنظور عكسي ، أي لم يبحثوا أثره النفسي عند مستمعيه ، بل ذهبوا بالبحث عن أسباب نفسية وانفعالات شخصية لمن صدر عنه القرآن الكريم ، ليثبتوا بها دعواهم بأنَّ القرآن الكريم ليس إلا أثراً نفسياً للنبي محمد (ﷺ)، وهذا ما سعى له باريت.

(١) ـ المصدر السابق: ١٩٠ ــ ١٩١

(٢) ـ المصدر السابق : ٦٤

فباريت يحاول أن يُثبت بتلك المقولات إنَّ القرآن الكريم هو: نتيجة لتلك الانفعالات المكنونة في نفس محمد (ﷺ) ، متوسلاً بعلم النفس الحديث ووسائله ليصل إلى : سلب الوحي الإلهي عن القرآن ، فغايته في هذا الجانب من البحث أن يثبت إنَّ القرآن الكريم إلهامٌ وفيض من نفس محمد(ﷺ) .

وأرى أن أذكر تعريف علم النفس ومدى ارتباطه بالقرآن الكريم قبل مناقشة أطروحات باريت ، فعلم النفس كما يعرفه العقاد بأنه : " علم الإنسان في عالمه الداخلي كله ، وهو الصق بالإنسان ، وأحرى بعنايته ، وأهدى إلى أسباب سعادته وشقائه ، من ذلك العالم الخارجي الأكبر" [١] ، ويرى الباحث أن باريت يتوسل في كتاباته بنوع خاص من أنواع علم النفس هو : علم نفس الاجتماع (بالانكليزية : Social Psychology) ويُعرف بأنَّهُ : " علم ينصب على دراسة مظاهر سلوك الفرد وخبراته من ناحية تأثرها بالمواقف الاجتماعية ، وهو مدين لعلم النفس وعلم الاجتماع معاً . ولم تستقل بحوثه إلا تحت تأثير ظروف الحرب العالمية الثانية "[٢].

وَيرى علماء النفس الحديث إنَّ العقل الإنساني مركب من شيئين هما : الشعور وهو: مركز الأفكار التي تخطر على قلوبنا في ظروف عادية ، واللاشعور وهو : مخزن الأفكار التي مَرَّت بنا ونسِيناها ، ولا تظهر إلا في أحوال غير عادية ، كالجنون والهستيريا ، وهذا القسم الثاني أكبر بكثير من الأول ، ومنه توصلوا إلى نتائج تثبت أن الدين ـــ الوضعي ـــ نتاج اللاشعور الإنساني[٣] .

وَتوصل فرويد (Freud)[٤] بعد جَهدٍ طويل أنَّ اللاشعور قد يقبل أفكاراً في الطفولة ، تؤدي إلى أعمال غير عقلية ، وهذا ما يحدث بالنسبة إلى العقائد الدينية : فإن فكرة الجحيم والجنة ترجع إلى صدى الأماني التي تنشأ لدى الإنسان إبّان طفولته ، ولكن لم تسنح له الفرصة لتحقيقها ، فتبقى دفينة في اللاشعور

---

(١) ما يقال عن الإسلام ، عباس محمود العقاد : ٣١١

(٢) ـ المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية ، تصدير إبراهيم مدكور : ١٢٦

(٣) ينظر الإسلام يتحدى مدخل علمي إلى الإيمان ، وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، مراجعة عبد الصبور شاهين ، مكتبة الرسالة ،: ١٣

(٤) ـ سيغموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩ م) : هو طبيب نمساوي من أصل يهودي ، اختص بدراسة الطب العصبي ، يعد من مؤسسي علم التحليل النفسي ، من أهم مؤلفاته : موسى والتوحيد ، مستقبل الوهم ، الجنس عند فرويد ، السلوك ، تفسير الأحلام . ينظر مقالة بعنوان سيغموند فرويد ، من وكيبيديا الموسوعة الحرة .

، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياة أخرى يتيسر له فيها تحصيل ما كان يتمناه ، شأن الرجل الذي قد لا يظفر بما يحب في الواقع فيحصله في المنام[١].

واللاشعور الإنساني أو كما يعبر عنه باريت (Paret) باللاوعي[٢] من الوجهة العلمية فراغ في أصله ، وإنَّما يستقر في الإنسان عن طريق الشعور بما يشغله الآن ، لأنَّ اللاشعور ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التي شاهدها الإنسان في حياته ، ولو مرَّة ، ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعلمها من قبل ، والذي يثير الدهشة أنَّ الدين الذي جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان ، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات ، فمن أين يأتي بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلى العلم بها[٣].

وهذا الجانب من علم النفس له تسميات منها : العقل الباطن : (بالانكليزية : Unconscious Mind) ويسمى أيضاً : اللاواعي، واللاشعور، وهو مفهوم يشير إلى مجموعة من العناصر التي تتألف منها الشخصية، بعضها قد يَعيهِ الفرد كجزءٍ من تكوينه ، والبعض الآخر يبقى بمنأى كلي عن الوعي[٤] .

لذلك كانت فكرة الوحي النفسي كما صورها المُستشرقون مبنية على وجود معلومات وأفكار مدخرة في العقل الباطن وأنها تظهر في صورة رؤى ثمَّ تقوى فيُخيل لصاحبها أنَّها حقائق خارجية [٥] ، ولذلك يرى علماء النفس إنَّ العقل الباطن : " إنّما يفيض بما فيه في غفلة من العقل الظاهر أي: ـــ الوعي والشعور ـــ ، ولذلك لا يظهر ما فيه إلا عن طرق الرؤى والأحلام والأمراض كالحمى مثلاً وفي الظروف غير عادية ، والقرآن الكريم نزل على النبي (ﷺ) وهو في اليقظة ، وفي اكتمالٍ من عقله وبدنه ، ولم ينزل منه شيء في

---

(١) ينظر الإسلام يتحدى ، وحيد الدين خان : ١٤

(٢) ـ ينظر محمد والقرآن ، رودي باريت : ١٤٩

(٣) ينظر الإسلام يتحدى ، وحيد الدين خان : ٢٥

(٤) ـ ينظر موسوعة شرح المصطلحات النفسية (انجليزي ـ عربي) ، د. لطفي الشربيني ، تقديم د. حسين عبد الرزاق الجزائري ، درا النهضة بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م : ٣٩١ ، وينظر مقال بعنوان عقل باطن ، من ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

(٥) ـ ينظر المدخل لدراسة القرآن الكريم ، د . محمد أبو شهبة ، دار اللواء الرياض ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م : ٩٩ ١٠٠

الرؤى والأحلام وهكذا نرى أن ما استندوا إليه من فكرة الوحي النفسي- إنَّما قصدوا بها إبطال الوحي المحمدي ، ولكن يأبى الله والراسخون في العلم ذلك : { يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}[١] "[٢].

ولذلك فإنَّ أكثر المقدمات التي بنى عليها أصحاب النظرية بنيانهم لا تقوم على أساس تاريخي صحيح، وإنّما تنطلق من فرضيات مسبقة تؤسس لبشرية الوحي الإلهي ، ولتحقيق ذلك لا يتورعون عن الكذب وتزوير الحقائق ، ولذلك أثبت المُستشرقون الذين تبنوا التفسير النفسي لظاهرة الوحي جَهلاً بمبادئ نظرية التحليل النفسي ذاتها ، ذلك أنَّ هذه النظرية عند فرويد مثلاً تفترض أنَّ كلَّ فعلٍ لا شعوري يحتاج إلى تشبع شعوري بمسبباته ، ومعنى هذا أنَّ على أصحاب هذا التفسير أن يثبتوا المعرفة الشاملة للنبي (ﷺ) بالمبادئ التي نادت بها دعوته ، فَضلاً عن إثبات فعل هذه المعلومات في عقله الباطن قبل أن تظهر في شكل حدس ، و ثبت على مستوى البحث التاريخي ، جَهل النبي محمد(ﷺ) المطبق بمحتوى التورانجيل ، وفي ضوء هذا الجهل فإن هناك استحالة لأن يأتي بما جاء به بفعل التأثر بمصادر خارجية ، فإنَّ التفسير النفسي- لظاهرة الوحي الإلهي يصطدم بالكثير من الاعتراضات الناشئة عن عجزه تفسير بعض الظواهر النفسية والموضوعية المصاحبة للوحي ، ناهيك عن عجزه الإجابة على الإلزامات العقدية التي تتمثل في تجاوز الظاهرة القرآنية لقدرات البشر ، وهيمنة الوحي القرآني على كل ما يتناقله الناس من كتابات دينية [٣] ، وعليه " فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني أو الاستشعار الداخلي ، بل إنَّ الوحي يتم من خارج الذات المحمدية المُتلقية له ، دون أن يكون لرسول الله (ﷺ) أي أثر في الصياغة والمعنى ، بل تنحصر- مهمته بحفظ الموحى وتبليغه ، وأمّا بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي(ﷺ) كما يظهر في أحاديثه المحفوظة ، وهو أسلوب مُغاير تماماً لإسلوب القرآن ، إنَّ محاولة البعض تعليل اختلاف أسلوب القرآن عن أسلوب الحديث عن طريق علم النفس التحليلي بدعوى إنّ القرآن صَدَرَ عن منطقة اللاشعور في حالة ضعف الوعي الخارجي ونشاط العقل الباطن ، وأنَّ الحديث صدر عن العقل الظاهر ، تَبدو مُتهافتة إذا تأملنا فيما صدر عن الحكماء و الشعراء والبلغاء من آثار أدبية تتضح فيها الوحدة الأسلوبية رغم مرورهم بتجارب

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٢

(٢) ـ المدخل لدراسة القرآن الكريم ، د . محمد أبو شهبة : ١٠٠

(٣) ـ ينظر نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر ، د. لخضر شايب : ٤٦٧

تأملية واستنباطية ... ولا شك أنَّ الهروب من الاعتراف بالوحي هو الدافع إلى التفسيرات العديدة المتناقضة لظاهرة الوحي "[١].

وهذا الرأي هو الذي يروجه المُستشرقون باسم (الوحي النفسي) زاعمين أنَّهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد، وما هو بجديد، وإنّما هو الرأي الجاهلي القديم ، لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله. فقد صَوروا النبي (ﷺ) رجلًا ذا خيال واسع وإحساس عميق، فهو إذًا شاعر، ثـمَّ زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيرًا على حواسه حتى يُخيل إليه أنّه يرى ويسمع شخصاً يكلمه ، وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أُخيلته و وجدانه، فهو إذًا الجنون أو أضغاث الأحلام، على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلًا على هذه التعليلات، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة (الوحي النفسي) حينما بدا لهم في القرآن الكريم جانب الأخبار الماضية والمستقبلة، فقالوا: لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة، فهو إذًا قد علمه بشر، فأي جديد ترى في هذا كله؟ إلا أنَّ الجديد الذي جاء به باريت أن عملية التعلم من أهل الكتاب هي في حدِّ ذاتها مسألة نفسية ، وفي الحقيقة هو حديثاً معاداً يضاهي به قول كفار قريش؟ وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمدّاً من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}[٢] ، وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله : أنَّه كان صادقاً أميناً، وأنَّه كان معذوراً في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلهي؛ لأن أحلامه القوية صَورتها له وحياً إلهياً، فما شهد إلا بما علم، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم إذ يقول: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}[٣].[٤]

فليس صحيحاً أن يكون القرآن الكريم انعكاساً لشخصية الرسول محمد(ﷺ) ، ففي كثير من المواقف التي تتعلق بأفراحهِ وأحزانهِ لم نجد لتلك المواقف أيُّ أثر فيه ، ففي مواقف عديدة أشتد فيها حزنه منها : حزنهُ لوفاة أبنائه وأقاربه حتى أطلق اسم عام الحداد والحزن على العام الذي فَقد فيه زوجته وعمه ، وفقد

(١) ــ السيرة النبوية الصحيحة ، د. أكرم ضياء العمري ، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة ، الطبعة السادسة ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م : ١ / ١٢٩ ــ ١٣٠

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١١٨

(٣) سورة الإنعام ، الآية : ٣٣

(٤) ينظر النبأ العظيم ، محمد عبد الله دراز : ٦٧

معهما العَون المعنوي الذي كان يُسانده أمام الصعوبات التي كانت تُقابله في سبيل نشر دعوته ، فهل نجد للقرآن أقل صدى لكل هذا ؟ ولكن بمجرد أن يتعلق الموضوع بسلوك أخلاقي ، أو تعليم إلهي ، نرى التعارض جلياً بين السلطة التشريعية والنفس الخاضعة المُستسلمة ، كما يتعارض التشدد مع التساهل ، والصراحة القصوى مع الحياء[1] .

أمّا ما يُشير إليه باريت في خصوص سورة الضحى ، فيذكر دروزة : إن الوحي القرآني في سورة الضحى ، كان تعبيراً وتوجيها للاستقرار النفسي للنبي محمد(ﷺ) ، ولقد وردت روايات في نزول هذه السورة تفيد في جملتها أن الوحي قد فَترَ عن رسول الله(ﷺ) في مبادئه ، وبعد أن سار شوطاً في مهمة الإنذار والتبشير والدعوة وصار له أعداءٌ ومكذبون ومتربصون ، فحزَّ هذا الفتور في نفس النبي(ﷺ) وآلمه ، لا سيِّما أن السيدة خديجة كما جاء في إحدى الروايات قد أظهرت خوفها من أن يكون وحي الله تعالى قد انقطع عنه وأنَّ ربَّه قد قلاه وتركه ، و أخذت أم جميل أخت أبي سفيان وزوجة أبي لهب في رواية تُعيره وتُبدي شماتتها حينما علمت بفتور الوحي عنه ، ومهما يكن من أمر ؛ فنص الآيات وروحها معاً يُلهم أنها نزلت في ظرف أزمة نفسية شديدة طرأت على النبي(ﷺ) بسبب فترة الوحي عنه ، وهذا الظرف النفسي هو ما يذكره باريت ، دون أن يتطرق لمضمون الآيات وروحها التي تُلهم أن القائل عدوٌ استغل خبر الفترة ، ولذلك فإن محتوى السورة تبث في نفس النبي(ﷺ) الطمأنينة وتؤكد له كذب ظن الناس ، وأن الله تعالى لم يقله ولم يدعه ، و كان الجاحدون يستغلون كل حادث يرون فيه ثغرة ضد النبي(ﷺ) ، وسورة الضحى من السور المبكرة في النزول ؛ إذ يجيء ترتيبها العاشرة أو الحادية عشرة ، و يعني كذلك أن النبي (ﷺ) كان قد استأنس بالوحي استئناساً شديداً فلم يستطع أن يكتم حزنه حينما شعر بفتوره عنه ، فانتشر ذلك عنه حتى بلغ الأعداء ، ونعتقد أن هذا الحادث في ظرفه وأثره على جانب عظيم من الخطورة في صدد صحة صلة النبي بالوحي الرباني وشعوره بأنه كان شيئاً منفصلاً عن ذاته يتوالى ويفتر[2] ، ولذلك ترتبط سورة الضحى بانقطاع

(١) ـ ينظر مدخل إلى القرآن الكريم ، د. محمد عبد الله دراز : ١٧٠

(٢) ـ ينظر سيرة الرسول ـ صورة مقتبسة من القرآن ، محمد عزة دروزة ، : ١ / ١٣٦ ــ ١٣٧

الوحي وفيها ينطوي على معجزة إلهية رائعة ، إذ في ذلك أبلغ الرد على الذين يفسرون الوحي بأنَّه إشراق نفسي ، أو إستبطان داخلي انبعث من أعماق ذاته نتيجة طول التأمل والتفكير[١] .

أمّا بالنسبة لسعي النبي محمد(ﷺ) إلى التقرب من اليهود ، فيعود إلى أنه (ﷺ) كان متيقناً بأنَّ الدين الذي بعث به دين عالمي يتوجه إلى العرب كما يتوجه إلى أهل الأديان الأخرى ، وإلى كل البشرية ، ومن هذا المنطلق سعى النبي (ﷺ) إلى إقناع يهود المدينة بأنَّه خاتم الأنبياء الذي وصفته كتبهم ، وتجشم في سبيل ذلك سخريتهم وتطاولهم ، وأجاب عن كل أسئلتهم التي أرادوا أن يعنتوه بها بدلاً من اتخاذها سبيلاً إلى تحصيل العلم [٢] ، فتلك الحقيقة التاريخية التي يحاول باريت أن يوظفها في الطعن بالوحي القرآني ، حين قال: إن الآيات القرآنية الواردة في حق اليهود ليست إلا تعبيراً عن خيبة الأمل عند النبي محمد (ﷺ)، متغافلاً عن موقف القرآن الكريم من بقية الكفار التي جاءت الآيات في حقهم مثل ما جاءت في اليهود ، فلم يُبدي النبي (ﷺ) ولا القرآن الكريم إشراقات الأمل تجاه بقية الكفار ؟.

ويحاول باريت (Paret) أن يُقارن بين الوحي القرآني وبين إلهام الفنانين ، كما بقوله : " وقد يكون في هذا الفهم لمسألة الوحي للوهلة الأولى شيءٌ من الغرابة ، إنما إذا تأمَّلْنا المسألة من زاويةٍ أُخرى تصبحُ مفهومةً ومعقولة ، نستطيع جَعْلَ الأمر مفهوماً بالفعل بمقارنته بإبداعات الفنانين ، فكُلُّ مُبْدع يؤمن بأنه يتلقى إلهاماً ، وبخاصةٍ إذا استطاع في لحظةٍ سعيدةٍ أن يعبّر عن إحساسٍ يخالجُهُ ، غامضٍ ومتفلّت ، بالتعبير الواضح والملائم ، وكذا الأمر مع العالم ذلك أن لدى كلِّ عالمٍ بذرة فنان ، ... فكثيرون يتسلَّل إليهم الإحساسُ أنهم يتلقَّون ويُلهَمون ، وأنّهم ليسوا مبادرين فاعلين ، والطريف أنه يُعَّر عن ذلك في مثل هذه الحالات بأنه حامل وهو قريبٌ من مفهوم الحمل الماديّ ، وانطلاقاً مِمّا ذكرناه ، تكونُ الخطوةُ صغيرةً للدخول إلى الإلهام والوحي ، اللذين عاشهما النبي "[٣].

ومبنى هذا القول : " إنَّ الوحي إلهام كان يَفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج ، ذلك أن منازع نفسه العالية وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية

---

(١) ـ ينظر العلمانيون والقرآن الكريم تاريخية النص ، د. أحمد إدريس الطعان ، دار ابن حزم الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م : ٦٤١

(٢) ـ ينظر نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر ، د. لخضر شايب : ٥٠٤

(٣) محمد والقرآن ، رودي باريت : ١٠٤ وللمزيد ينظر : القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت، ص٧٦ .

وتقاليد وراثية رديئة، يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة، أو يتمثل له رجل يُلقنه ذلك يعتقد أنَّه مَلكٌ من عالمِ الغيب، وقد يَسمعه يقول ذلك، وإنّما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء، فكل ما يخبر به النبي (ﷺ) كلام ألقى في روعه، أو عن ملك ألقاه على سمعه، فهو خبر صادق عنده"[1] ، ولذلك ورد في "دائرة معارف العلوم الاجتماعية : " أنّه يمكن تشبيه الدين بالفن (Art)، فكما أن بعض الناس يتمتعون بقوة غير عادية في التذوق الفني ، ويبرزون في المجال الفني كذلك ينفرد بعض الناس بخصائص العيون والآذان الداخلية (Inner Eyes And Ears) ، يلتقطون بها ما لا يتمكن الإنسان العادي من سماعه أو رؤيته ، وهذا الشيء هو الذي قاد الإنسان إلى تجارب الدين "[2].

ويذكر ابن خلدون[3] الحالة الشعورية التي تنتاب الأنبياء حين الاتصال بالوحي الإلهي ـــــ التي يحاول باريت أن يشبهها بإلهامات الفنانين ـــــ فيقول ابن خلدون : " وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة، وهي حالة الوحي، فطرةٌ فطرهم الله عليها وجِبلَّةٌ صورهم فيها، ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية، بما رُكِّب في غرائزهم من العصمة والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة ، ورَكَز في طِباعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتشيع نحوها، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤوا بتلك الفطرة التي فُطروا عليها لا بإكتسابٍ ولا صناعة، فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملأ الأعلى

(١) ـ الوحي المحمدي ، محمد رشيد رضا : ١١٩

(٢) ـ الدين في مواجهة العلم ، وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، مراجع عبد الحليم عويس ، دار النفائس بيروت ط٤ ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م : ١١٣

(٣) ـ عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ) : هو الفيلسوف المؤرخ ، أصله من أشبيلية ، ومولده ومنشأه في تونس ، وتوفي بالقاهرة ، من أشهر كتبه : العبر وديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ، شرح البردة ، شفاء السائل لتهذيب المسائل . ينظر الأعلام ، خير الدين الزركلي : ٣ / ٣٣٠

ما يتلقونه، وعاجوا به على المدارك البشرية منزلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد "[١] ، ثمَّ إنّ شيئاً من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي أو التأملات العلوية ، لا يستدعي الخوف والرعب وامتقاع اللون التي كانت ظاهرة عند نزول الوحي القرآني على النبي محمد(ﷺ) ، وليس ثمة أي انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية ، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى ، وإلا لاقتضى ـ ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف المفاجئة المتلاحقة [٢] ، فصاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لا يمرُ إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال .

فهذه الأفكار التي بنى عليها باريت نتائجه ، ما هي إلا مقدمات يذكرها لتعليل ما جاء به النبي محمد(ﷺ) من رسالة إلهية ، على طريقة التحليل النفسي ، وذلك باستعماله لعلم النفس كوسيلة للوصول إلى غايته بسلب الوحي الإلهي عن القرآن الكريم .

المطلب الثاني : دعوى إنّ الوحي القرآني رؤيا إستبصارية .

يعلق باريت (Paret) على الآيات الخمس الأولى من سورة العلق وعلى حديث بدء الوحي بالقول : " وفيما يتعلق بالسورة رقم (٩٦) سورة العلق ؛ فإنّ الرواية المأثورة تربطُ ذلك بظهور مَلَكٍ للنبي محمد ويُعَرَّف لاحقاً بأنه جبريل ، وبحسب الرواية فإنَّ المَلَكَ طلب من النبي بإلحاحٍ أن يقرأ ، وكرَّر عليه ذلك ، ثم قرأ عليه بالفعل الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، ويمكن للناظر في الآيات المذكورة أن يتردَّدَ في مدى دلالتها على السياق الذي يذكره حديثُ بدء الوحي ، واعتبار الآيات الأولى من سورة العَلَق أول ما نزل ، فربما اعتبر النبيُّ استناداً إلى رؤيا استبصرها أنه تلقّى تلك الآيات من فم المَلَكَ "[٣] ، وهنا وبكلمات قليلة لا تتعدى السطرين يحاول باريت نسف قضية الوحي من أساسها ، مع أنَّها تمثل الحجر الأساس ،

(١) ـ مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، تحقيق حامد أحمد الطاهر ، دار الفجر للتراث القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م : ١٣٤

(٢) ـ الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن الكريم ، د. أحمد محمد فاضل ، مركز الناقد دمشق ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م : ١٢٠

(٣) ـ محمد والقرآن ، رودي باريت : ٨١ .. وللمزيد : القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت ، ص٤٢ .

والمرتكز الذي بُنيت عليه الرسالة الخاتمة ، فالوحي الأول في رأي باريت رؤيا استبصرها النبي(ﷺ) محمد وليس وحياً من الله تعالى [١].

فباريت يريد أن يصور الوحي القرآني الأول على أنَّه رؤيا استبصرها النبي محمد (ﷺ)، و أساس هذه الشبهة هو استناده إلى الروايات التي وردت في حادثة نزول الوحي الأول على النبي محمد(ﷺ) ، وأرى قبل أن أذكر تفاصيل تلك الحادثة ، لابد أنّ أبين ما تعنيه كلمة الاستبصار وما يقصده باريت من استعمالها في تصوير الوحي القرآني الأول الذي تلقاه النبي محمد(ﷺ) .

الاستبصار في اللغة : مُشتقة من البصر والتبَصَّر ، و الألف والسين والتاء تدل على طلب البصيرة والتبصَّرُ ، والبصر كما يقول ابن فارس : " الباءُ والصادُ والرَّاءُ أصلان: أَحدُهما العلمُ بالشيء يُقَال : هو بصيرٌ به ، ومن هذه البصيرةُ ... والبصيرةُ: البرهانُ وأصلُ ذَلك كُله وضوحُ الشيء، ويُقَالُ: رأيتهُ لَمحاً باصراً، أَي: ناظراً بتحديقٍ شديدٍ ، ويُقالُ: بَصُرتُ بالشيء: إذا صرتَ بِهِ بَصيراً عالماً، وأبصرتهُ: إِذَا رأَيتهُ ، وأمَّا الأَصلُ الآخرُ فَبُصرُ الشيء غلظهُ، ومنه البصرُ، هو أن يضمَّ أديمٌ إِلَى أديمٍ "[٢] ، وبصر القلب: " نظره وخاطره ، والبصيرة : عقيدة القلب وقد استبصر في رأيه وتبصَّر وبصُر بَصارة صَار ذا بصيرَة "[٣].

والاستبصار قد يكون من التبصر وهو التأمل في الشيء ، فقد ورد في تاج العروس أنّ " التَّبصُّرُ في الشيء : التأَملُ والتَّعرفُ ، وتقولُ: تَبصَّر لي فلَاناً ، ومِن المجازِ: استَبصرَ الطريقُ: استبان ووضح ، ويُقَال: هو مُستَبصرٌ في دينه وعَمله، إِذا كان ذَا بصيرةٍ ، وَفي حَديث أُمِّ سلَمةَ: (أَليس الطَّريقُ يجمعُ التّاجرَ وابن السَّبيلِ والمُستبصرَ والمجبُورَ)[٤] ، أي المُستبين للشَّيء؛ أرادت أن تلك الرُّفقَة قد جمعتِ الأخيارَ والأَشرارَ. وبَصَّره تبْصيراً : عرَّفه وأوضَحه وبصَّرتُه بِهِ علَّمتُه إِيّاه ، وتبصَّر في رأيه واستبصرَ: تبيَّن ما يأتيه من خيرٍ وشر ، وفي التَّنزيل العزيز: {لَكُم مّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا

(١) ـ ينظر القرآن في كتابات باريت ـ محمد والقرآن أنموذجاً ـ ، بحث قدمه الدكتور أمجد يونس الجنابي ، لندوة الوحي القرآني في كتابات المستشرقين ، على قاعة كلية الآداب الجامعة العراقية ، بتاريخ ١٧ / ١٠ / ٢٠١٢م : ١٠

(٢) معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس : ١ / ٢٥٣ ــ ٢٥٤

(٣) المخصص ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي المتوفى ٤٥٨ هـ ، تحقيق خليل إبراهيم جفال ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ــ ١٩٩٦م : ٤ / ٤٩

(٤) ينظر مسند أحمد بن حنبل ، الإمام أحمد بن حنبل : ٤١ / ٢٨٥

مُسْتَبْصِرِينَ}[١] أي أَتوا ما أتوه وهم قد تبيَّن لهُم أن عاقبته عذابُهم، وقيل: أَي كانوا في دينهم ذوي بَصائر، وقيل: كانُوا مُعجبين بضلالَتهم "[٢] .

وأمّا الاستبصار في الاصطلاح فيعرفه الكَفَوي بقوله : " هُو الْعلم بعد التَّأَمُّل "[٣]

ولهذا المصطلح الذي استعمله باريت (Paret) أبعاداً خبيثة ، إذ ينطوي مصطلح الاستبصار (insight) ، في علم النفس على معانٍ عدة من أهمها: النظر إلى الوضع بوصفه كُلاً، وتَبين العلاقات في هذا الكل، وإدراك الروابط بين الوسائل والهدف، والاستفادة من تلك الوسائل في الوصول إلى الهدف، والتعلم أو الفهم الواضح والمباشر للوضع من دون استخدام سلوك المحاولة والخطأ على نحو ظاهر، ولعل المعنى الأكثر شيوعاً لهذا المصطلح في نظرية التعلم هو المعنى القائل: إنه الإدراك المفاجئ للروابط المفيدة بين عناصره في البيئة ـــ ولعل باريت حاول توظيف هذا المعنى الذي يدل عليه لفظ الاستبصار في اللقاء المفاجئ الأول الذي حصل بين النبي محمد(ﷺ) وبين جبريل ، فهذا اللقاء المفاجئ كان نتيجةً للروابط البيئية التي كونت الرسالة في وعي النبي محمد(ﷺ) كما يزعم باريت ـــ ...

ويعود تأكيد أهمية الدور الذي يؤديه الاستبصار في عملية التعلم إلى علماء النفس الشكليين من أتباع الغشتالت (Gestalt) وتعني الكلمة بالألمانية «الشكل أو الصيغة» والحق أنَّ الكثير من المعرفة العلمية حول ظاهرة الاستبصار مُستمدة من أعمال عالم النفس الألماني الشكلي كوهلر (Kohler) وبحوثه حول تعلم الحيوان، فضلاً عمّا سبق يُستعمل مصطلح الاستبصار للدلالة على فهم المرء لأفكارهِ ومشاعرهِ الخاصة وسلوكه، وفي العلاج النفسي يُشير هذا المصطلح إلى معرفة العصابي أو المُضطرب نفسياً أو المريض نفسياً، كما يمكن أن يُشير إلى اكتشاف المريض للروابط بين سلوكه من جهة وبين الذكريات والمشاعر والدوافع المحبطة من جهة أخرى. ومن هذا المنظور يعد الاستبصار جوهرياً لطرائق معينة في العلاج النفسي وخاصة

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٣٨

(٢) ـ تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ، أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي لمتوفى ١٢٠٥هـ ، تحقيق مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، (ب ـ ت) : ١٠ / ٢٠٧

(٣) ـ الكليات ، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي ، أبو البقاء الحنفي المتوفى ١٠٩٤هـ ، تحقيق عدنان درويش ـ محمد المصري ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م : ٦٧

تلك الطرائق التي تعتمد التحليل النفسي في العلاج إذ يمثل الوصول إلى فهم جديد للدوافع اللاشعورية وخلفيات الاضطرابات النفسية[١].

أمّا الرُّؤية فهي : إدراك المَرئيُّ، وذلك أضرُب بحسب قوى النّفس: الأوّل: بالحاسّة وما يجري مجراها، نحو: { لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ }[٢] ، والثاني: بالوهم والتّخيّل، نحو: أَرَى أنَّ زيداً منطلق، والثالث: بالتّفكّر، نحو:{ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ }[٣] ، والرابع : بالعقل ، وعلى ذلك قوله : { ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى }[٤] ، والرُّؤيا: ما يرى في المنام [٥] ، و جاءت لفظة الرُّؤيا في الدلالة على ما يُرى في اليَقَظة قال الراعي : فكَبَّر للرُّؤيا وهَشَّ فُؤادُه ... وَبَشَّرَ نَفْساً كان قَبْلُ يَلُومُها ، وعليه فُسِّرَ قوله تعالى :{ وَمَا جَعلنَا الرُّؤْيا التي أَرَيْناكَ إِلا فِتْنةً للنَّاس }[٦].[٧]

ولذلك فتفسير باريت للوحي الأول على أنّه رؤيا استبصارية ، كان مُنطلقاً من الروايات التي جاءت في شأن النزول الأول للقرآن الكريم ومنها رواية ضعيفة تقرر أن النبي(ﷺ) تلقى الوحي الأول في المنام قبل أن يلقاه في اليقظة ، في حين تؤكد الحقائق التاريخية على تلقى النبي محمد(ﷺ) الوحي الإلهي الأول حقيقة في اليقظة ، وهو ما دلت عليه الروايات الصحيحة من أشهرها ما رواه البخاري بقوله : " حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنّها قالت : أول ما بدىء به رسول الله (ﷺ) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثمَّ حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذواتِ العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك

---

(١) ـ ينظر نظريات التعلم دراسة مقارنة ، د. مصطفى ناصف ، ترجمة د. علي حسين حجاج ، مراجعة د. عطية محمود هنا ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٣م : ١٩٩ ٢١٤ ، وينظر مقال بعنوان استبصار ، من وكيبيديا الموسوعة الحرة .

(٢) ـ سورة التكاثر ، الآية : ٦ ـ ٧

(٣) ـ سورة الأنفال ، الآية : ٤٨

(٤) ـ سورة النجم ، الآية : ١١

(٥) ـ ينظر المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني : ٣٧٣ ــ ٣٧٥

(٦) ـ سورة الإسراء ، الآية : ٦٠

(٧) ـ ينظر لسان العرب ، ابن منظور : ١٤ / ٢٩٧

فقال اقرأ قال : (ما أنا بقارئ) . قال : (فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ}[1] ، فرجع بها رسول الله (ﷺ) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: (زملوني زملوني) ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر (لقد خشيت على نفسي) ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً..."[2] .

ويحاول باريت (Paret) انطلاقاً من الرواية السابقة أن يُصور مشهد الوحي القرآني الأول الذي تلقاه النبي محمد(ﷺ) بمشهدِ الكاهن الذي يَستجلب ويَستنطق الحدث بالرؤى والخيالات ، فكان ما تلقاه من جبريل نتيجة رؤى تبصرها أدَّت بعد جهد لظهور واستحضار المَلَك جبريل ، فباريت عمل على إسقاط الحالة الشعورية للعرافين أو ما يسميهم باريت بالرائين الذين يستمدون مصادر معلوماتهم من التبصُّر والإلهام [3] ،على ما حصل للنبي محمد(ﷺ) عند تلقيه للوحي الأول ، متغافلاً عن الحقيقة التاريخية التي تُبين الفارق بين أحوال الكهان أو الرائين[4] وبين الحالة الشعورية التي انتابت النبي محمد (ﷺ) كما بينتها الرواية السابقة :

١ــــ تُفيدُ الرواية بأنَّ جبريل قد ظهر للنبي محمد(ﷺ) حقيقةً في عالم المشاهدة ، لا كما يعبر عنه باريت برؤيا استبصرها محمد(ﷺ) ، والرواية تنص على ذلك :" وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ " ، فمجيء الملك جبريل كان سابقاً لتلقي الوحي .

---

(١) سورة العلق ، الآية : ١ ٣

(٢) صحيح البخاري ، أبو عبد الله البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله : ١ / ٩ ١٠

(٣) ينظر محمد والقرآن ، رودي باريت : ٣٥

(٤) لا يفرق باريت بين الكاهن وبين الرائي ، في حين يفرق العقاد بينها فيقول : " الكهانة وظيفة والرؤية طبيعة ، والكاهن والكاهن يقصد ما يقوله والرائي يساق إليه ، وقد تشترك الكهانة والرؤية في شخص واحد ويظل العملان مختلفين ، فما يقوله الكاهن قصداً غير ما يقوله وهو (راء) ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه " . مطلع الأنوار أو طوالع البعثة المحمدية ، عباس محمود العقاد ، المكتبة العصرية صيدا بيروت ،(ب ـ ت) : ٧٢

٢ــــ إنّ الوحي القرآني ومنذُ أول آية ، كان مستقلاً عن ذات النبي محمد(ﷺ) وإرادته ، لا كما يُصور باريت بأنَّ الوحي القرآني رؤية تراءت للنبي محمد(ﷺ) أو هي جزء من مُخيلته ، بل كان لقاء النبي محمد (ﷺ) وهو في " غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه ، وهو يقول له اقرأ ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مرده إلى حديث النفس المجرد ، وإنما هي استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات "[١].

٣ــــ إنّ ما حدث للنبي محمد(ﷺ) عند تلقيه للوحي القرآني الأول في غار حراء ، من جُهدٍ وتعب ، كما ورد في قوله : " فأخذني فغطني[٢] حتى بَلغ مني الجُهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ..." ، وهذا الجهد والتعب لا يحصلُ في أحوال الكهان والرائين ، وقد ذكر القرآن الكريم ما يَمُرُّ به النبي محمد (ﷺ) ، فجاء الوحي ليثبت فؤاد النبي محمد(ﷺ) وذلك في قوله تعالى : {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا }[٣].

٤ــــ مفاجأة جبريل للنبي محمد(ﷺ) بآيات الوحي الأول ، تُناقض ما يُؤسس له باريت من أنَّ الوحي الأول كان نتيجة تحضير واستحضار للرؤى ، فباريت يتغافل عن روح الرواية التي تعطي وبدون شك معنى المفاجأة ، فالرواية تُشكل " حَدث تلقائي فُجائي طَرأ على حياة من اصطفاه الله للرسالة أو النبوة دون سابق توقع أو تطلع ، فهذا محمد (ﷺ) في عزلته عن العالم فاجأه ملك الوحي في غار حراء ، وأخذ يعتصره بقوة حتى أجهده وأضناه ... "[٤] .

٥ــــ الخوف الذي إنتاب النبي محمد(ﷺ) حينما لاقى جبريل في غار حراء ، لهو من أوضح الأدلة على إستقلال وافتراق أحوال النبوة ، عن أحوال الكهان والرائين الذين : لا يعتريهم الخوف والفزع في تكهنهم ، ذلك أنّ " حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي أو التأملات العلوية لا يستدعي الخوف

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر دمشق ، الطبعة الثامنة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م : ١٨٩ ـ ١٩٠

(٢) ومعنى (فغطني) : أي ضمني وعصرني حتى بلغ مني الجهد مبلغه والكلمة مشتقة من الغط وهو حبس النفس . ينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني : ١ / ٣٢

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٣٢

(٤) وحي الله حقائقه وخصائصه ، حسن ضياء الدين :١٢٣

والرعب واصفرار اللون ، يدل على ذلك القياس اليقيني القائم على استقراء الحالات وجميع الظروف المشابهة وليس ثمة أي انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية ، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى ، وإلا للزم من ذلك أن يعيش جميع المفكرين والمتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف والمفاجئة المتلاحقة "[١].

٦ ـــ جَهلُ النبي محمد (ﷺ) بالوحي كما ورد في الرواية السابقة بقوله : " فقال لخديجة وأخبرها الخبر (لقد خشيت على نفسي) ... فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ... فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نَزَّلَ اللهُ على موسى " وبما جاء به جبريل حامل الوحي حين " جاءه الملك فقال اقرأ قال : (ما أنا بقارئ) " ، في حين إنّ أحوال العرَّافين أو الرائين تدل على أنَّ رُؤاهم مَا هي إلا تعبيراً عن معارفهم وأفكارهم وهذا ما يقرره باريت نفسه [٢] ، ولذلك كان النبي(ﷺ) " يخشى أن يكون الذي يناديه تابعاً من الجن كما ينادى الكهنة "[٣].

ويصور الدكتور محمد عبد الله دراز[٤] الحالة الشعورية بعد نزول الآيات الأُولى من الوحي الإلهي على النبي محمد(ﷺ) وثبوتها في ذاكرته ، فيقول :" أخذ يرددها لنفسه بينما اختفى الملك ، وعندما خرج محمد من الغار عائداً إلى داره سمع صوتاً يناديه ، فرفع رأسه إلى السماء وإذا بالملك ذاته يغطي الأفق ويقول : (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) ولم يستطع أنّ يحوّل نظره ، أو يتقدم أو يتأخر ، فلم يكن يُحدق في أي نقطة في السماء إلا ويراه أمامه ، واستمر ذلك مُدة من الزمن ثمَّ لم يعد يرى شيئاً . قد يكون الاضطراب الذي أصاب محمداً من هذه التجربة السمعية والبصرية الجديدة قد أوجد عنده بعض الشك حيناً في حقيقة

(١) كبرى اليقينيات الكونية ، د. محمد سعيد رمضان البوطي : ١٩٠

(٢) ينظر محمد والقرآن ، رودي باريت : ٣٥ وللمزيد ينظر ، القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت ، ص٤٩ .

(٣) ـــ روح البيان ، إسماعيل حقي بن مصطفى الاستنبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء المتوفى ١١٢٧هـ ، دار الفكر بيروت (ب ت) : ١٠ / ٤٧٠

(٤) ـــ محمد عبد الله دراز (١٨٩٤ ـــ ١٩٥٨م) : ولد في مصر ، ودخل الأزهر وحاز على الشهادة العالمية عام ١٩١٦م ، ونال الدكتوراه من جامعة السوربون عام ١٩٤٧م برتبة الشرف العليا ، و من أبرز مؤلفاته : النبأ العظيم ، الدين ، دستور الأخلاق في القرآن ، مدخل إلى القرآن عرض تاريخي وتحليل مقارن ، وقد توفي في باكستان أثناء مشاركته في مؤتمر لاهور عام ١٩٥٨م . ينظر مقالة بعنوان محمد عبد الله دراز ، من و يكيبيديا الموسوعة الحرة .

صوت الملك أو بعض الخوف من أن يكون قد أصابته مَسَّةٌ شيطانية وهو الذي لم يمقت شيئاً كمقته للسحرة والكهنة فكان يخشى أنّ يكون قد أصبح واحداً منهم ، وقد لا يبعد عن الحقيقة أن الآلام البدنية التي نتجت عن هذه المقابلة تشبه آلام الموت وقد يكون قد تصور أنَّه مات من شدتها ، وبهذا الاضطراب المعنوي والبدني عاد محمد فوراً إلى بيته تهزهُ حمى باردة وطلب من أهله أنّ يدثروه بغطاء ثقيل حتى يذهب عنه الخوف ، وعندما أنهى إلى خديجة ما حدث وأبدى لها مخاوفهُ واضطرابه بذلت وسعها في تطييب خاطره في أطيب حديث وأجمل مواساة ... ولّما لم تستطع أن تعطي له تفسيراً موضوعياً وأكيداً عن طبيعة هذه الظاهرة لجأت إلى من هو مختص في الموضوع لاستشارته ، وقررت أن تذهب معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وهو عجوز كفيف قد تنصر بعد أن أمضى حياته في المطالعات العبرية وفي علوم الكتب السماوية السابقة ، فقال لهما : هذا هو الناموس الذي نزل على موسى ..."[1] .

أمّا باريت (Paret) فقد شَابَهَ في شُبهته ما ورد عن المشركين حين قالوا : " يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله ما نَعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ... فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نُسودك علينا ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غَلب عليك ـــــ وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً ـــــ بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه أو نُعذر فيك ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه واله وسلم : ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاب وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فَبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا من ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإنّ تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم "[2].

وكان المشركون يزعمون أنَّ بعض الجن يتراءى للنّبي(ﷺ) ، في رُؤى وخيالات كما يَحصلُ للعرافين والرائين فيوهمه أنّه رسول ، وأمّا المستشرقين فلم يعدوا عن قولهم ، والظاهر أنّهم وَلّدَوا رَأيَهُم من رأيِهم ، ولم يَختلفوا عنهم بشيء ، فهؤلاء عَبّروا حسب مَفاهيمهم بالرؤى والخيالات ، وأولئك عبّروا أيضاً وفق

(١) ــ مدخل إلى القرآن الكريم ، د. محمد عبد الله دراز : ٢٨ ــ ٢٩

(٢) ــ السيرة النبوية لابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى ٢١٣هـ ، تحقيق مصطفى السقا ـ وإبراهيم الابياري ـ وعبد الحفيظ الشلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (ب ــ ت) : ١ / ٢٩٥ ـ ٢٩٦

مفاهيمهم الجن والشياطين[١]، وكان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إلى الكهان الذين كانوا يدعون أن مع كل واحدٍ منهم رئياً من الجن يتراءى له[٢].

إنَّ قضية الرؤى والخيالات نجدها بشكل واضح وَفعّال في النصرانية التي ينتمي إليها باريت ، ولعل باريت أراد بقولهِ رؤيا استبصارية أن يُماثل بالوحي القرآني الأول بما هو موجود في العهد الجديد ، وهو سفر (رؤيا يوحنا) ، و سُميَّ بالرؤيا ؛ لأنّه أشبه بالأحلام ولكن يوحنا رآها في اليقظة [٣] ، ولعل هذا العنوان الإنجيلي حَمل باريت لإسقاط تلك الرؤى الإنجيلية على الوحي القرآني ، محاولا إسقاط ما حَدث ليوحنا على ما حدث للنبي محمد (ﷺ) عند تلقيه للوحي القرآني الأول .

لذلك نزل القرآن الكريم على النبي محمد(ﷺ) وهو في اليقظة ، وفي اكتمال من عقله وبدنه ، ولم ينزل منه شيء في الرؤى والنوم، أمّا ما رواه ابن إسحاق بقوله : " ثنا أحمد: ثنا يونس عن ابن إسحق قال: حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي، وكان واعية، عن بعض أهل العلم إن رسول الله (ﷺ) حين أراد الله عز وجل كرامته، وابتدأه بالنبوة ، كان لا يمرُ بحجر ولا شجر إلا سلم ... فقال رسول الله (ﷺ) : جاءني وأنا نائم فقال: اقرأ ، فقلت : وما اقرأ ؟ حتى ظننت أنَّه الموت ، ثم كشطه عني فقال: اقرأ ، فقلت وما أقرأ ؟ فعاد لي بمثل ذلك ثم قال: اقرأ ، فقلت: وما أقرأ ؟ وما أقولها إلا تنجياً أنّ يعود لي بمثل الذي صنع بي فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...} ثم انتهى فانصرف عني ، وهببت من نومي ، وكأنما صور في قلبي كتاب ..."[٤].

ورواية ابن إسحاق ضعيفة لا يُمكن التعويل عليها ولا تقديمها على ما ثبت في الصحيح ، وَضُعف الرواية بَيِّن وواضح ، وهو إبهام من حَدَّث عنه عبد الملك في قوله : عن بعض أهل العلم ، وحُكم الحديث المبهم

---

(١) ــ ينظر الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن الكريم دراسة ونقد ، د. أحمد محمد :١١٦

(٢) ـ ينظر البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط١ ١٤١٨هـ ــ ١٩٨٨م : ١ / ٢٨٩

(٣) ــ ينظر المسيحية ، د. أحمد شلبي : ٢٠٦

(٤) ــ السيرة النبوية لابن إسحاق ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني المتوفى ١٥١هـ ، تحقيق أحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م : ١ / ١٦٧ ــ ١٦٨

الضعف وعدم القبول ؛ لأن شرط قبول الخبر عدالة رواته ، ومَنْ أُبْهِمَ اسْمُه لا يُعرفُ عَيْنهُ؛ فكيف عدالته [١] .

وروى الطبري الحديث من طريق آخر ، بزيادةٍ في اللفظ فقال : "حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال حدثني وهب بن كيسان مولى آل الزبير قال سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عُمير بن قتادة الليثي حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله (ﷺ) من النبوة حين جاء جبريل عليه السلام فقال عبيد : وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس كان رسول الله (ﷺ) يجاور في حراء من كل سنة شهراً... فقال رسول الله (ﷺ) فجاءني وأنا نائم بنمطٍ من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ ... فقرأته قال: ثم انتهى ثم انصرف عني وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاباً ..."[٢] و رواية الطبري عن عبيد بن عمير[٣] مرسلاً ، والمرسل هو : ما سقط من آخر إسناده من بعد التابعي ، وحكمه الضعف وعدم القبول [٤] ، والثابت أنّ اللقاء الأول بين النبي(ﷺ) وبين جبريل كان في اليقظة لا في المنام ، وهو الثابت في الحديث الصحيح الذي سبق ذكره ، وأمّا ما جاء في الرواية الضعيفة ، فلا يُمكن التعويل عليه ، فالرواية جاءت عن طريق عبيد بن عمير بن قتادة الليثي وهي رواية مرسلة[٥] .

وعلى فرض ثبوت ما ذكره ابن إسحاق فيكون ما حدث في المنام توطئة لما حدث في اليقظة ، فليس في حديث عائشة أن ذَلك كان في المنام، وليس فيه ما يُنافيه، لذلك يُجمع بين الحديثين من وجه حسن قَاله السُّهيلي : وهو أن يكون النَّبي (ﷺ) رأى جِبريل في المنَام قبل أن يأْتيه في اليقَظَة توطئة وتيسيراً عليهِ ورفقاً به،

(١) ينظر نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر ، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٠ه ، تحقيق عبد الله بن ضيف الرحيلي ، مطبعة سفير بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ ه : ١٢٥

(٢) تاريخ الأمم والملوك ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري المتوفى (٣١٠هـ) ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ ١٤٠٧هـ : ١ / ٥٣٢

(٣) عبيدة بن عمير بن قتادة الليثي أبو عاصم المكي : روى عن عمر وعلي وعائشة وأبي ذر ، وروى عنه عطاء وابن أبي مليكة وعمرو بن دينار وغيرهم ، كان عالماً واعظاً كبير القدر مات سنة أربع وسبعين من الهجرة . ينظر تذكرة الحفاظ ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى (٧٤٨هـ) ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م : ١ / ٤١

(٤) ينظر تيسير مصطلح الحديث ، د. محمود الطحان، الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م: ٧١ ٧٢

(٥) ـ ينظر السيرة النبوية الصحيحة ، د. أكرم ضياء العمري : ١ / ١٢٨

لأَن أَمر النُّبُوَّة عَظيم، وعبأها ثقيل والبشر ضعيف، وَهذا كما ذكره في حَديث الإِسراء واختارهُ ثمَّ جماعة من العلماء، وفي حديث عائشة مَا كأَنَّهُ يرشد إِلَى ذَلك إِذ أخبرت أَنه (ﷺ) كان لَا يرى رُؤيا إِلَّا جاءت مثل فلق الصُّبح، تُرِيدُ في صحَّتها وظهورها، فَكانت رُؤيته جِبريل عَليهما السَّلام في النّوم من ذَلِك لما رآهُ يقظة [1] ، ولذلك فإن رؤى الأنبياء تُعد من الوحي ما لم يأت وحي في اليقظة يعارضها أو يردها[2] ، " وإِنَّما ابتدئ (ﷺ) بالرؤيا لئلا يفجأه الملك الذي هو جبريل بالرسالة فلا تتحملها القوة البشرية ؛ لأَنَّها لا تحتمل رؤية الملك وإن لم يكن على صورته الأصلية ولا على سماع صوته ولا على ما يخبر به ، فكانت الرؤيا تأنيساً له ، وكانت مدة الرؤيا ستة أشهر على ما هو أدنى الحمل "[3].

ولذلك تَحيرَ باريت كما تَحيرَ العرب من قبل في الربط بين الذات المُلقية والذات المُتلقية، فتخبطوا تخبط شهود الزور، وتبلبلت أذهانهم ، وتضاربت آراؤهم، ولم يطمئنوا إلى تفسير يرضي عقولهم السقيمة ، وصور الله تعالى حيرتهم هذه بقوله تعالى : { بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ}[4] فردوا مصدر القرآن إلى رؤى النائم أو شطحات المجنون، وإلى أخيلة الشاعر أو سُبحات الأديب ، وفي توالي حرف الإضراب (بل) ثلاث مرات تهكم لاذع باضطرابهم وتضاربهم، ألا ساء ما يحكمون، فأما رؤى النائم فتردها بداهة مشاعر النبي(ﷺ) المرهفة الواعية، وشخصيته اليقظة الساهرة حتى في ساعات الراحة والرقاد ، ولقد رافق هذا الوعي رسول الله (ﷺ) منذ اللحظة الأولى التي خاطبه الله تعالى فيها بقوله: {اقْرَأْ} حتى نزلت الآية الأخيرة من القرآن الكريم فلحق بالرفيق الأعلى (ﷺ) ، وعلينا هنا أنّ نقدر جَسامة الخطأ الذي يقع فيه بعض المفسرين وبعض الكُتّاب المعاصرين عن حسن نية حين يذهبون وراء خيالهم الخصيب فيصورون النبي نائماً في غار حِراء أول نزول الوحي عليه ، مع أن رواية الصحيحين قاطعة في أنَّ الوحي فَاجأه وَهو يقظ يلتمس الحقيقة ويبحث عن الله تعالى ، ولذلك رعب وجاء خديجة يرجف فؤاده ، ولو وقع

---

(١) ـ ينظر شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى ، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي المعروف بابي شامة المتوفى ٦٦٥هـ ، تحقيق جمال عزون ، مكتبة العمرين العلمية الشارقة الإمارات ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م : ٧٨

(٢) ـ ينظر كبرى اليقينيات الكونية ، د. محمد سعيد رمضان البوطي : ١٨٥

(٣) ـ روح البيان ، إسماعيل حقي بن مصطفى الاستنبولي : ١٠ / ٤٧٠

(٤) ـ سورة الأنبياء ، الآية : ٥

له هذا في المنام لزال خوفه ورعبه بعد اليقظة، فلأمر ما قال القرآن: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى، أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى}[١] .[٢]

المطلب الثالث : دعوى إنّ النبي محمد (ﷺ) مُشاركاً في القرآن الكريم

يعود باريت (Paret) مراراً وتكراراً في كتاباته محاولاً إثبات أنَّ للرسول صلى الله عليه وسلم تـأثيراً على الوحي القرآني ، وهذه المرة يتوسل بالآيات القرآنية ذاتها ، فيقول : " كان هناك انتقادٌ للنبـي في القـرآن إذا صح التعبير ـ ولأكثر من مرَّة ـ ففي موطنين في القرآن يحذر النبي من أن يسارع إلى إبلاغ ما أوحي إليـه قبل أن يصبح في صيغته النهائية ، ففي السورة رقم ٢٠ : ١١٤ : {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ــ أي بإعلانه قبـل أن تتعقل نصه ــ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا }، وفي السـورة رقـم ٧٥ : ١٦ ـ ٨ : {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ــ أي بالنص القرآني الموحى ــ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } . والنص في الآية الثانية غير واضح تماماً ، لكن المقصود لا تُخطئه العين : إنَّ مهمة النبي تتمثل أو تقتصر على حفظ وإبلاغ النص الموحى إليه دونما تدخل فيه وإذا خطا خطـواتٍ إلى الأمـام باتّجـاه المشاركة في صياغة النص ، فإنَّه يكونُ قد تجاوز مهمته أو تكليفه "[٣].

وَعلَّق الدكتور رضوان السيد مترجم الكتاب على الـنص السـابق ، بقولـه : " يفسر ـ المؤلـف الآيـات السالفة الذكر بشكل يختلفُ عن تأويل سائر المفسرين ، الـذين يـذهبون إلى إنّ النبـي (ﷺ) كـان يخشـى أن ينسى بعض النصّ الموحى أثناء الوحي ، فيُسرع إلى تكراره ليحفظه ، وأن الله سبحانه أوصاه بالهدوء والثقة ، وضمن له أن لا ينسى : { سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى }[٤] "[٥].

وانطلاقاً من الآيات التي استشهد بها باريت على محاولة إثبات أنَّ للنبي محمـد(ﷺ) سـلطة التـدخل في النص القرآني ، لتنتهي تلك القدرة والسلطة أن يكون النبي محمد (ﷺ) مشاركاً في تشكيل الـنص القـرآني ،

---

(١) ـ سورة النجم ، الآية : ١١ ـ ١٢

(٢) ـ ينظر مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح : ٣٨ ــ ٣٩

(٣) ـ محمد والقرآن ، رودي باريت : ١٠٦

(٤) ـ سورة الأعلى ، الآية : ٦

(٥) ـ القرآن تعليق وفهرسة ، رودي باريت باريت : ١٠٦ الهامش .

وحين نرجع إلى كتب التفسير ، يتبن للقارئ أنَّ باريت يبني كلامه على مغالطات واضحة إذ نجد للمفسرين آراء تكاد تكون متقاربة في بيان معنى الآيات السابقة ، لا كما يقرر لها باريت ، فالمفسرون ذكروا أسباباً وتعليلات عديدة للآيات ، ولم يقتصروا على ما ذكره باريت بأنّ السبب هو : الاسارع إلى إبلاغ الوحي من قبل أن يُصبح في صيغته النهائية ، ومن هذه التعليلات والأسباب :

ما ذكره الطبري من تعليلٍ لِمَا جاء في الآيات السابقة مخالفاً لما ذهب إليه باريت ، فيذهب إلى إنَّ التعجُل كان لحبه وشوقه(ﷺ) للوحي القرآني فيقول : " اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله قيل له: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}(١) فقال بعضهم: قيل له ذلك ؛ لأَنَّهُ كان إذا نَزل عليه منه شيء عجل به ، يريد حفظه من حبه إياه، فقيل له: لا تعجل به فإنَّا سَنحفظُه عليك"(٢).

وَيذكر الزمخشري : إنّ النبي محمد(ﷺ) كان يتعجل بالوحي لئلا يَنفلت منه ، فيقول : " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لُقنَ الوحي نازع جبريل القراءة، ولم يصبر إلى أن يُتمها، مُسارعة إلى الحفظ وخوفاً من أن يتفلت منه، فأُمر بأن يستنصت له مُلقياً إليه بقلبه وسمعه ، حتى يقضى إليه وحيه ، ثمَّ يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه "(٣) ، وكان من مقتضى وعدِ الله لرسولهُ (ﷺ) بعدم نسيان ما يُنزلُ عليه من القرآن، أن لا يتعجل الرسول بحفظ وضبط ما ينزلُ عليه من الوحي القرآني ، ولكنَّ شدة حرص النبي(ﷺ) على تلقي أمانة الله المأمور بتبليغها كما تَنْزِل عليه ، جعلَته يرى من الخير أن يتعجل بقراءة ما يَنزلُ عليه ، لتحقيق ما وعده الله به ، وجعلَته يرى أنَّ عليه أن يضبط ما يتلقاهُ بتلاوة مجودة ، كما يقرؤها جبريل عليه السلام ، مع حرصه (ﷺ) على فهم المراد ، لكلِّ ذلك قال الله تعالى لرسوله (ﷺ) في هذا الدرس

(١) ـ سورة القيامة ، الآية : ١٦

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير أبو جعفر الطبري المتوفى (٣١٠هـ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م : ٢٤ / ٦٥

(٣) ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري المتوفى ٥٣٨هـ ، دار الكتاب العربي بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ : ٤ / ٦٦١

الاعتراضي { لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ }[١] أي : لا تحرك بما يُنزل عليك من القرآن لسانك لأجل أن تعجل بجمع كلماته وآياته في ذاكرتك ، وتعجل بضبط تلاوته مرتلاً مجوداً ، وتَعجل بفهم معانيه المرادة[٢] .

وذلك أن النبي (ﷺ) كان في أول عهده بالوحي يتعجل في تلقفه ويحرك لسانه بالقرآن من قبل أن يفرغ أمين الوحي من إيحائه إليه وذلك للإسراع بحفظهِ والحرص على استظهاره حتى يُبلغه للناس كما أنزل وكان (ﷺ) يجد من ذلك شدة على نفسه فوق الشدة العظمى التي يحسها من نزول الوحي عليه حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد وحتى إن جسمه ليثقل بحيث يحس ثقله من بجواره وحتى أن وجهه ليحمر ويسمع له غطيط ، فاقتضت رحمة الله بمُصطفاه أن يُخفف عنه هذا العناء فأنزل عليه في سورة القيامة: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}[٣] ، وبهذا اطمأن الرسول (ﷺ) ثقة بأنَّ الله قد تكفل له بأن يجمع القرآن في صدره وأن يقرأه على الناس كاملاً لا ينقص كلمة ولا حرفاً وأن يُبين له معناه فلا تخفى عليه خافية منه ، وقال له في سورة طه : {وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً}[٤] ...

وفي هذا دليل إلى أن القرآن كلامُ الله وحده ومُحال أن يكون كلام للنبي محمد (ﷺ) وإلا لَما احتاج إلى هذا العناء الذي كان يعانيه في نزول القرآن عليه ولكان الهدوء والسكون والصمت أجدى في إنضاج الفكرة وانتقاء ألفاظها لديه ولَما كان ثمة من داع إلى أن يطمأن على حفظه وتبليغه وبيان معانيه ، فضلاً عن ذلك أنَّ هذه الحال التي كانت تعتري النبي محمد (ﷺ) عند الوحي لم تكن من عادته في تحضير كلامه لا قبل النبوة ولا بعدها ولم تكن من عادة أحدٍ من قومه بل كان ديدنهم جميعا تحضير الكلام في نفوسهم وكفى[٥].

فتفسير باريت (Paret) للآيات السابقة بالشكل المتحامل كما يظهر للقارئ ، لم يَقل به أحد من المفسرين ، فلم يُوجه القرآن الكريم انتقاداً للنبي محمد(ﷺ) كما يصور باريت انطلاقاً من الآيات القرآنية

---

(١) سورة القيامة ، الآية : ١٦

(٢) ينظر معارج التفكر ودقائق التدبر ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م : ٢ / ٤٩٠ ٤٩١

(٣) ـ سورة القيامة ، الآية : ١٦ ـ ١٩

(٤) ـ سورة طه ، الآية : ١١٤

(٥) ـ ينظر مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني : ٢ / ٣٠٩ ـ ٣١٠

السابقة ، ولم يفهم أحد أنَّ في تلك الآيات تحذيراً للنبي محمد (ﷺ) في المشاركة في الوحي الإلهي ، فالقرآن الكريم بَيَّن مهمة النبي محمد(ﷺ) بكل وضوح ، فقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }[١] ، فباريت يحاول أن يوظف تلك الآيات ليظهر النبي محمد(ﷺ) في مُنافسة حميمة مع الله تعالى في صياغة النص القرآني ، ليصل باريت إلى تلك النتيجة المقررة مُسبقاً في مُخيلته ، وهي : بشرية القرآن .

ويذكر باريت (Paret) إنَّ المقصد من الآيات السابقة هو : " إنَّ مهمة النبي تتمثل أو تقتصر على حفظ وإبلاغ النص الموحى إليه دونما تدخل فيه وإذا خطا خطوات إلى الإمام باتجاه المشاركة في صياغة النص ، فإنَّه يكون قد تجاوز مهمته "[٢] ، ونتفق مع باريت في شطر مقولته الأول ، وهي أنَّ مهمة النبي محمد(ﷺ) تقتصر على تبليغ القرآن وهذا ما نص عليه القرآن ، لذلك فإنَّ النبي محمد (ﷺ) أدراك للأمانة الكبرى التي كُلف بها وهي أن يُبلغ الناس القرآن : { وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ }[٣]، وإدراكًا منه (ﷺ) أنَّ تبليغ القرآن يجب أن يكون كما أوحي إليه بلا زيادة ولا نقصان ، لكن باريت أضاف إلى المقصد الأساس للآية كلمات قليلة المبنى خبيثة المعنى ، حين أضاف معنى الاتهام في الآيات القرآنية ، فالقارئ لتلك الآيات لا يتبادر لذهنه ذلك الاتهام والتحذير الذي يسعى باريت لتقريره ، وهو مسعى النبي (ﷺ) للمشاركة في النص القرآني ، وهذا المعنى الذي جاء به باريت لا يمكن أن يُفاد من الآيات القرآنية التي وبكل وضوح معنى النهي عن التعجل في تلقي الوحي القرآني لا المشاركة في صياغته .

ويذكر سيد قطب : إنَّ في ثنايا السورة وحقائقها ، كانت تلك الآيات التي تحمل توجيهاً خاصاً للرسول(ﷺ) وتعليماً له في شأن تلقي هذا القرآن ، جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي، وحفظ هذا القرآن، وجمعه، وبيان مقاصده ، كل أولئك موكول إلى صاحبه ، ودور النبي محمد(ﷺ) هو التلقي والبلاغ فليطمئن بالاً ، وليتلق الوحي كاملا، فيجده في صدره منقوشاً ثابتاً ، وهكذا كان ، فأما هذا التعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل ، أليس من قول الله؟ وقول الله ثابت في أي غرض كان؟ ولأي أمر أراد ؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت في صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب ، ودلالة إثبات هذه الآيات في

(١) ـ سورة المائدة ، الآية : ٦٧

(٢) ـ محمد والقرآن ، رودي باريت : ١٠٦

(٣) ـ سورة الأنعام ، الآية : ١٩

موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة في شأن كل كلمات الله في أي اتجاه ، وفي شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التي أوحى بها إلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- لم يخرم منها حرف، ولم تند منها عبارة [1] .

ويرى مالك بن نبي أنَّ تلك الآيات التي استشهد بها باريت ليست إلا بياناً لاستقلال الوحي القرآني عن الذات المحمدية ، فيقول : إنَّ هناك " مناقضة صريحة بين الميول والاتجاهات الطبيعية لدى النبي(ﷺ) ، وبين ما يعتريه خلال تلقيه الوحي، هذه المناقضة تجلو لأعيننا الخصائص الظاهرية التي بيناها و أكدناها حتى الآن في القرآن، أعني: موضوعيته واستقلاله بالنسبة للذات المحمدية، وأول مثال على هذه المناقضة قوله تعالى: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}[2] ، فلقد كان النبي (ﷺ) في مُستهل دعوته يجهد ذاكرته وهو يعاني حالة التلقي، لكي يثبت الآيات كما نزلت، وتلك حالة غريزية تلقائية تحدث لأي إنسان ينصت لآخر، وهو يريد أن يحفظ كلامه، فهو يكرره في نفسه...

فالتكرار في الحقيقة عمل تدريبي للذاكرة، غريزي أساسي، فهو لهذا يصدر طبيعياً عن الذات نفسها، أيّاً كانت درجة وعيها، بل قد يحدث أن نكرر كلمات شخصية محضة، في أحلامنا مثلاً، ولكن حالة التلقي ليست حالة بين اليقظة والنوم (بالفرنسية : Hypnagogique)، ولا سيما بالنسبة للذات المحمدية، التي ربما كانت تقوم بتدريب ذاكرتها تلقائياً، ولكن بطريقة آلية مقصودة، تحتفظ معها في هذه الحالة ببعض حريتها ووعيها، ويتجلى هذا في هيئتها البدنية، إذ يظل النبي(ﷺ) جالساً، كما يتجلى في سلوكها العقلي، حين يكرر ما يوحى إليه ، فالآية المذكورة تأتي بما يُضاد هذا السلوك الطبيعي، إذ يطلق النبي (ﷺ) لإرادته العنان إلى مدى معين، حتى يحفظ بالتكرار ما تفجر في مجال عقله، فأثاره جرسه وأيقظه...

والآية تهدف إذن إلى مصادرة حريته في استخدام ذاكرته، حيث تنحصر حركتها في هذا التكرار المنهي عنه، وبذلك لا تتجاهل الآية حرية اختيار النبي(ﷺ) ، وإرادته أن يدرب ذاكرته فحسب، بل تتجاهل أيضا القانون النفسي لوظيفة التذكر نفسها، وهكذا نلاحظ مناقضة مزدوجة بين الظاهرة القرآنية وبين الذات المحمدية، هذه المناقضة المزدوجة لإرادة النبي(ﷺ) ، ولقانون وظيفة التذكر، تثبت بوجه خاص تفرد ظاهرة ذات مجال مطلق، مستقل عن العوامل النفسية والزمنية، وبهذا تؤكد خاصتي السمو والإطلاق للظاهرة

(١) ـ ينظر في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٦ / ٣٧٦٧

(٢) ـ سورة طه ، الآية : ١١٤

القرآنية "[١] ، وبهذا التحليل الرائع الذي ذكره الأستاذ مالك بن نبي يتبين أن ما احتج به رودي باريت من آياتٍ للطعن بالوحي القرآني ، هي في الحقيقة حجة عليه ، بل ويضيف محمد دروزة إنَّ لحركات لسان النبي محمد(ﷺ) حينما كان يتلقى الوحي ما هي إلا صورة دقيقة للشعور المحمدي في فُجائية الوحي وطارئ ظهوره فيقول :" أو تحريك لسانه به قبل أن يتم الوحي إلقاء ما يوحى به إليه ، وفيها صورة قوية الدلالة لشعوره بالوحي الطارئ عليه الملقي إليه القرآن ؛ إذ كان يردد ما يلقى عليه حال إلقائه وقبل انتهائه خشية أن يفلت منه شيء أو ينساه "[٢].

وهناك من يرى إنَّ الخطاب لا يتعلق بالنبي محمد(ﷺ) في قوله: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ }[٣] ، ففي هذه الآيات الخطاب موجه للعبد يوم القيامة ، أي إذا أتاه الكُتاب الحفظة من الملائكة ، يُقال للعبد : لا تحرك به لسانك ولا تعجل[٤] ، وهناك من يذهب إلى أنّ تلك الآيات التي استشهد بها باريت قد نُسخ حكمها ، فيذكر المقري إنَّ : " النبي (ﷺ) إذا جاء جِبريل بالقرآن سابقَه في لفظه ليقْرَأ على جبريل مرَّتَين فَأنزل الله تَعالَى هذه الآية { وَلا تَعجَل بِالقُرآن مِن قَبلِ أَن يُقضى إِلَيكَ وَحيُه}[٥] ، وَنزل: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لتعجل بِهِ إِنَّ عَلَينا جَمعَهُ وَقُرآنَهُ فَإِذا قَرَأناه فَاتبع قرآنه}[٦] ، فَبقيَ بَين بَين لَا يقدر أَن يقرأه مع جبريل ولَا يُمكنهُ أن يُخالف الأَمر حتَّى أنزل الله تعالى الأمان فَقَالَ: {سَنُقرِئُكَ فَلا تَنسى}[٧] ، فَصارَ هذا ناسخاً لما قبله فَلم ينسى شيئاً (ﷺ) حتَّى لقي ربه تَعَالَى "[٨].

---

(١) الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي : ٢٧٧ ــ ٢٧٨

(٢) سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ صورة مقتبسة من القرآن ، محمد عزة دروزة :١/ ١٢٠

(٣) سورة القيامة ، الآية : ١٦ ـ ١٩

(٤) ـ ينظر غرائب التفسير وعجائب التأويل ، محمود بن حمزة الكرماني ، دار القبة للثقافة الإسلامية بجدة (ب ــ ت) : ٢ / ١٢٨١ ـ ١٢٨٢

(٥) سورة طه ، الآية : ١١٤

(٦) ــ سورة القيامة ، الآية : ١٦ ـ ١٨

(٧) ــ سورة الأعلى ، الآية : ٦

(٨) ــ الناسخ والمنسوخ ، أبو القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي المقري المتوفى ٤١٠ هــ ، تحقيق زهير الشاويش ، محمد كنعان ، المكتب الإسلامي بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ : ١٢٢ ــ ١٢٣

فاستناد باريت (Paret) على ظاهر النص ، دون الرجوع إلى ظروف النص المتعلقة به من أسباب نزول ، وعلاقة الآيات التي ذكرها ببقية النصوص القرآنية ، ليُشَّكلَ باجتزاء تلك الآيات صُورة مُشوهة عن معناها ومقصدها الواضح ، ليصل بتلك المنهجية إلى تحقيق غايته بسلب خاصية التنزيل الإلهي عن الوحي القرآني.

الخاتمة :

الحمدُ لله على مَا أعانني به لإنجازِ هذه الدراسة ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين .وبَعدَ هذه الجولة مع المُستشرق الألماني رودي باريت ومناقشةِ أفكارهِ المتعلقة بالقرآن الكريم ، انتهيت إلى النتائج الآتية :

١. يُعلن باريت في كثير من المواضع ، أنَّ القرآن الكريم كتاب من تأليف النبي محمد (ﷺ) ، وليس كتاباً من عند الله تعالى .
٢. يتوسلُ باريت بأساليب ومناهج كثيرة لكي يصل إلى غاياته ، كان من أبرزها استعماله لمنهج النقد التاريخي وتطبيقه على السيرة المحمدية .
٣. يؤسسُ باريت لعلاقة ورابطة بشرية بين القرآن الكريم وبين النبي محمد (ﷺ) ، انطلق منها لتحقيق غاياته وأهدافهِ .
٤. يتسم أسلوب باريت في كتاباته من الناحية الشكلية بالبساطة مع إضفاء طابع العلمية ، إلا أنَّ كثيراً من صياغاته تتسم بالتشكيك والارتياب ، فقد يُدلس على القارئ في موضع ، ويُشير من طرف خفي إلى ما يريده في موضعٍ ثاني ، ويصرح لما يهدف في موضع ثالث ، متقناً هذا الأسلوب بشكل عالي.
٥. يؤكد باريت في أغلب مفرداتِ كتاباته على دعوى التأثير اليهودي والمسيحي على القرآن الكريم والرسالة الإسلامية .
٦. يحاول باريت إثبات التأثير النفسي على الوحي القرآني ، وذلك بتحليل مواقف من السيرة المحمدية على أنَّها انعكاساً لَمَا كان يُلاقيه النبي محمد(ﷺ) من خصومه ، ومَا يتعرض له في خلال حياته .
٧. يُحاولُ باريت نفي مصدرية الوحي الإلهي عن القرآن الكريم ، ساعياً لإثبات مصادر متعددة للقرآن الكريم لا تخرج في غالبها عن الموروث الجاهلي ونصوص التورانجيل .

٨. يَعرضُ باريت آيات القرآن الكريم بكونها مواد معرفية ، استقاها النبي محمد (ﷺ) من التورانجيل ومن التراث والتاريخ العربي .

٩. لا يُثبت باريت للقرآن الكريم أيَّ قيمة ، إلا باعتبارهِ وثيقة تاريخية تُعبر عن حقبة النبي محمد (ﷺ) وَحياته الشخصية .

١٠. يُلاحظ النظرة الاستعلائية لباريت على العرب ، فهو لا يُثبت لهم شيء إلا الخرافات ، محاولاً توظيف اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم وجاءت بها رسالة الإسلام للقول : أنَّ دين الإسلام موجهة للعرب خاصة ، وأنَّ النبي محمد (ﷺ) ما جاء بالقرآن إلا ليُماثل ببني قومه الأمم الأخرى كاليهود والنصارى .

١١. تَبيَّن من البحث إنَّ مهمة النبي محمد (ﷺ) تقتصر على تبليغ الوحي الإلهي المتمثل بالقرآن الكريم ، وليس المشاركة فيه كما يدعي باريت .

وَيأمل الباحث بمُنجزهِ المُتواضع هذا أن يفتح الباب أمام دراساتٍ من هذا النوع تسعى إلى بَثِ حياةٍ جديدة في مثل هذه الدراسات، لِمَا لهذا النوع من الدراسة أهمية بالغة .وآخر دَعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك وأنعِم على سيد وَلد آدم محمد بن عبد الله النبي الأمي وَعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر

١. الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن الكريم ، د. أحمد محمد فاضل ، مركز الناقد دمشق ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

٢. آثار الاستشراق الألماني في الدراسات القرآنية ، د. أمجد يونس ، دار الفارابي لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م .

٣. آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم ، د . أحمد نصري ، دار القلم الرباط المغرب ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م

٤. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الدكتور محمود حمدي زقزوق ، دار القلم دمشق ، الطبعة الثامنة دمشق ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م .

٥. الإسلام في قفص الاتهام ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر دمشق ، الطبعة الخامسة ١٤٠٢هـ ـــ ١٩٨٢م

٦. الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ، د . عبد العظيم المطعني ، دار الوفاء ، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

٧. الإسلام والمسلمون في ألمانيا بين الأمس واليوم ، طه الولي نهضة مصر للطباعة ، الطبعة الخامسة ٢٠٠٥م .

٨. الإسلام يتحدى مدخل علمي إلى الإيمان ، وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، مراجعة عبد الصبور شاهين ، مكتبة الرسالة ،

٩. أضواء على الثقافة الإسلامية ، د. نادية شريف العمري

١٠. بشرية المسيح ونبوة محمد في نصوص كتب العهدين ، د. محمد أحمد محمد خليل ملكاوي ، مطابع الفرزدق التجارية ، ط١ ١٤١٣هـ ـــ ١٩٩٣م

١١. البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ، الطبعة السابعة ١٤١٨هـ ـــ ١٩٨٨م

١٢. تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ، أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي لمتوفى ١٢٠٥هـ ، تحقيق مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، (ب ـــ ت)

١٣. تاريخ الأمم والملوك ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري المتوفى (٣١٠هـ) ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ

١٤. تاريخ الفكر الديني الجاهلي ، محمد إبراهيم فيومي مركز الناقد دمشق ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م .

١٥. التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي المتوفى (١٣٩٣هـ) ، دار سحنون للنشر تونس ١٩٩٧م ١٨ / ٧٥

١٦. تذكرة الحفاظ ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى (٧٤٨هـ) ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م

١٧. التفسير الحديث للأستاذ عزة دروزة دراسة وتحليل ، رسالة ماجستير تقدم بها عبد الحكيم محمد الأنيس ، إلى كلية العلوم الإسلامية في جامعة بغداد ، عام ١٤١٣ ه ـ ١٩٠٣م

١٨. تيسير مصطلح الحديث ، د. محمود الطحان، الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

١٩. جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير أبو جعفر الطبري المتوفى (٣١٠هـ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠م

٢٠. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الشهير بابن رجب الحنبلي ، تحقيق د. ماهر ياسين الفحل ، دار طيبة دمشق يوريا ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٩م

٢١. الجامع لإحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين القرطبي المتوفى ٦٧١هـ ، تحقيق هشام سمير البخاري ، دار عالم الكتب الرياض ، طبعة عام ١٤٢٣ه ـ ٢٠٠٣م

٢٢. الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، رودي باريت ، دار الفارابي لبنان ، ٢٠٠٥م .

٢٣. دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها ، عبد المحسن بن زبن المطيري ، دار البشائر الإسلامية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

٢٤. دفاع عن القرآن ضد منتقديه، د. عبد الرحمن بدوي ، ترجمة كمال جاد الله ، الدار العالمية للكتب والنشر ، (ب ـ ت)

٢٥. الدين في مواجهة العلم ، وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، مراجع عبد الحليم عويس ، دار النفائس بيروت ط٤ ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م

٢٦. روح البيان ، إسماعيل حقي بن مصطفى الاستنبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء المتوفى ١١٢٧هـ ، دار الفكر بيروت (ب ـــ ت)

٢٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الالوسي المتوفى (١٢٧٠هـ) ، تحقيق علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ

٢٨. سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية منهاجا وسيرة ، عبد العظيم إبراهيم المطعني ، مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٣م

٢٩. سيرة الرسول صورة مقتبسة من القرآن الكريم ، محمد عزة دروزة ، منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت ، (ب ـــ ت)

٣٠. السيرة النبوية الصحيحة ، د. أكرم ضياء العمري ، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة ، الطبعة السادسة ١٤١٥هـ ـــ ١٩٩٤م

٣١. السيرة النبوية لابن إسحاق ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني المتوفى ١٥١هـ ، تحقيق أحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ـــ ٢٠٠٤م

٣٢. السيرة النبوية لابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى ٢١٣هـ ، تحقيق مصطفى السقا ـــ وإبراهيم الابياري ـــ وعبد الحفيظ الشلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (ب ـــ ت)

٣٣. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين ، عبد العال محمد الجبري نهضة مصر للطباعة ، الطبعة الخامسة ٢٠٠٩م .

٣٤. الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن للدكتور محمد عابد الجابري ، عبد السلام بكاري، الصديق بوعلام ، الدار العربية للعلوم بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٤٠هـ ٢٠٠٩م

٣٥. شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها ، محمد متولي الشعراوي ، جمع وإعداد أحمد عبد القادر عطا ، مكتبة التراث الإسلامي القاهرة

٣٦. شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى ، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي المعروف بابي شامة المتوفى ٦٦٥هـ ، تحقيق جمال عزون ، مكتبة العمرين العلمية الشارقة الإمارات ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م

٣٧. شرح صحيح البخاري لابن بطال ، ابن بطال أبو الحسين علي بن خلف بن عبد الملك المتوفى ٤٤٩هـ ، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م

٣٨. شمائل الرسول صلى الله عليه واله وسلم ، أحمد بن عبد الفتاح الزاوي ، درا القمة الإسكندرية ، (ب ـ ت)

٣٩. صحيح البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة الجعفي البخاري ، دار صادر بيروت ، (ب ـ ت) ٣/ ٨٦٥ .

٤٠. الطريق إلى مكة ، مراد هوفمان نهضة مصر للطباعة ، الطبعة الخامسة ٢٠٠٥م .

٤١. الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر دمشق ، الطبعة الرابعة ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م ٢٠١

٤٢. العلمانيون والقرآن الكريم تاريخية النص ، د. أحمد إدريس الطعان ، دار ابن حزم الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م ٦٤١

٤٣. غرائب التفسير وعجائب التأويل ، محمود بن حمزة الكرماني ، دار القبة للثقافة الإسلامية بجدة (ب ـ ت) ٢ / ١٢٨١ ـ ١٢٨٢

٤٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٣هـ ، رقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفيحاء دمشق ، (ب ـ ت)

٤٥. في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق القاهرة ، الطبعة السابعة عشر ١٤١٢هـ

٤٦. القرآن الكريم في دراسات المستشرقين ، مشتاق بشير الغزالي ، دار روتابرينت مصر ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م .

٤٧. القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية ، د محمد أبو ليلة ، دار النشر للجامعات مصر ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

٤٨. القرآن في كتابات باريت ـ محمد والقرآن أنموذجاً ـ ، بحث قدمه الدكتور أمجد يونس الجنابي ، لندوة الوحي القرآني في كتابات المستشرقين ، على قاعة كلية الآداب الجامعة العراقية ، بتاريخ ١٧ / ١٠ / ٢٠١٢م

٤٩. قصة الحضارة ، ول ديورانت ـــ وليم جيمس ديورانت ، ترجمة د. زكي نجيب محمود وآخرون ، دار الجيل بيروت لبنان ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس ، طبعة عام ١٤٠٨ هـ ـــ ١٩٨٨م .

٥٠. قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ، د. فضل حسن عباس ، دار البشير ، (ب ـ ت)

٥١. قضية الإلوهية في الأسفار اليهودية ، د. عبد المنعم فؤاد ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

٥٢. كبرى اليقينيات الكونية ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر دمشق ، الطبعة الثامنة ١٤١٧هـ ـــ ١٩٩٧م

٥٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري المتوفى ٥٣٨هـ ، دار الكتاب العربي بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ

٥٤. الكليات ، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي ، أبو البقاء الحنفي المتوفى ١٠٩٤هـ ، تحقيق عدنان درويش ـــ محمد المصري ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٩هـ ـــ ١٩٩٨م

٥٥. لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري ، دار صادر بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ .

٥٦. ما يقال عن الإسلام ، عباس محمود العقاد ، مطبعة المدني القاهرة ، (ب ـــ ت)

٥٧. ماذا يريد الغرب من القرآن ، د . عبد الراضي محمد عبد المحسن ، إصدار مجلة البيان ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـــ ٢٠٠٦م ٣٥

٥٨. مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، الطبعة الرابعة والعشرون ٢٠٠٠م ٤٠

٥٩. مجلة الاستشراق ، العدد الثالث ١٩٨٩م ، مقال بعنوان مستعربان ألمانيان بارزان هلموت ريتر ورودي باريت ، د. ميشال جحا ١١٦ ،

٦٠. مجمع البيان في تفسير القرآن ، أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، تخريج إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م

٦١. محمد والقرآن دعوة النبي العربي ورسالته، رودي باريت، ترجمة الدكتور رضوان السيد، الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م .

٦٢. المخصص ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي المتوفى ٤٥٨هـ ، تحقيق خليل إبراهيم جفال ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦م

٦٣. مدخل إلى القرآن عرض تاريخي وتحليلي مقارن ، د. محمد عبد الله دراز ، ترجمة محمد عبد العظيم علي ، دار القلم الكويت طبعة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م

٦٤. المدخل لدراسة القرآن الكريم ، د . محمد أبو شهبة ، دار اللواء الرياض ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م

٦٥. المستشرقون والقرآن الكريم ، د. محمد أمين حسن ، دار الأمل الأردن ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م

٦٦. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني المتوفى (٢٤١م)، تحقيق شعيب الارنؤوط ـ عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢١ه ـ ٢٠٠١م .

٦٧. مطلع الأنوار أو طوالع البعثة المحمدية ، عباس محمود العقاد ، المكتبة العصرية صيدا بيروت ،(ب ـ ت)

٦٨. معارج التفكر ودقائق التدبر ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م ٢ / ٤٩٠ ـ ٤٩١

٦٩. المعجم الفلسفي ،مجمع اللغة العربية ، تصدير إبراهيم مدكور ، المطابع الأميرية ، القاهرة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .

٧٠. معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر ،١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

٧١. المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، أبي العباس احمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المتوفى ٦٥٦ هـ ، تحقيق محي الدين ديب ، يوسف علي بدوي ، أحمد محمد السيد ، محمود إبراهيم زابل ، دار ابن كثير دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م

٧٢. مقارنة الأديان ، المسيحية ، أحمد شلبي ،مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة العاشرة ١٩٩٨م .

٧٣. مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، تحقيق حامد أحمد الطاهر ، دار الفجر للتراث القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

٧٤. من افتراءات المستشرقين على أصول العقيدة الإسلامية ، د . عبد المنعم فؤاد ، مكتبة العبيكان الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م ٨٨

٧٥. مناقشات وردود ، محمد فريد وجدي ، جمع وتقديم د. محمد رجب بيومي ، الدار المصرية اللبنانية القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـــ ١٩٩٥م .

٧٦. مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـــ ١٩٩٥م

٧٧. موسوعة الفرق والأديان في سؤال وجواب ، إسلام محمود دربالة ، مكتبة الإيمان ـ المنصورة ، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م ٤١٤

٧٨. موسوعة المستشرقين ، عبد الرحمن بدوي ، الدار العلمية للفلسفة (ب ـ ت) .

٧٩. موسوعة شرح المصطلحات النفسية (انجليزي ـــ عربي) ، د. لطفي الشربيني ، تقديم د. حسين عبد الرزاق الجزائري ، درا النهضة بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م ٣٩١ ، وينظر مقال بعنوان عقل باطن ، من ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

٨٠. الناسخ والمنسوخ ، أبو القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي المقري المتوفى ٤١٠ هـ ، تحقيق زهير الشاويش ، محمد كنعان ، المكتب الإسلامي بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ

٨١. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن ، د. محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، طبعة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

٨٢. نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر ، د . لخضر شايب ، مكتبة العبيكان الرياض ٢٠٠١م .

٨٣. نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر ، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٠ه ، تحقيق عبد الله بن ضيف الرحيلي ، مطبعة سفير بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ ه

٨٤. نظريات التعلم دراسة مقارنة ، د. مصطفى ناصف ، ترجمة د. علي حسين حجاج ، مراجعة د. عطية محمود هنا ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٣م

٨٥. نور الإسلام وأباطيل الاستشراق ، د. فاطمة هدى نجا ، دار الإيمان لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣ م

٨٦. الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده ، د . محمود ماضي ، دار الدعوة الاسكندرية ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م

٨٧. وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة نقض مزاعم المستشرقين ، حسن ضياء الدين عتر ، دار المكتبي دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .

٨٨. الوحي المحمدي ثبوة النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدينة إلى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام ، محمد رشيد رضا، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ .